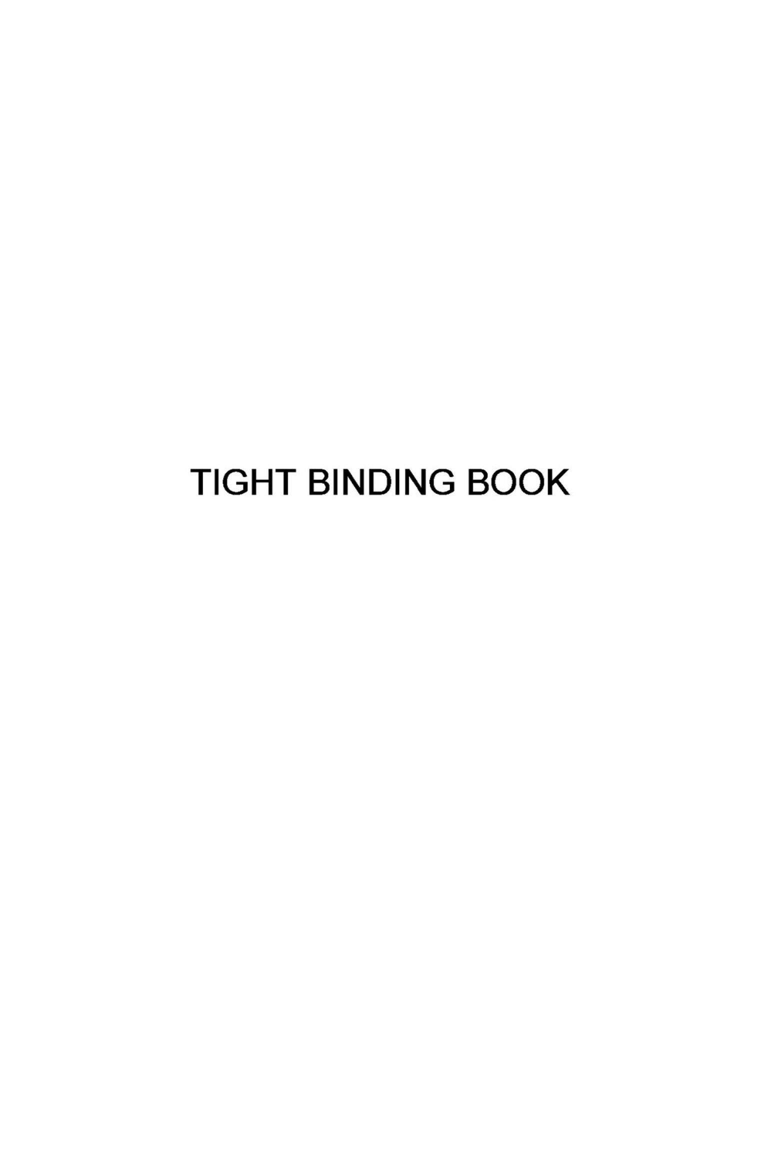

TIGHT BINDING BOOK

عفريت النسوان

بقلم

نجيب ميخائيل غرغور

***

جزء ثاني

—

ترجمة

حقوق اعادة طبعها محفوظة لمترجمها

—*—

الاسكندرية

في مطبعة جريدة المحروسة

١٨٨٦

*

عفريت النسوان

٢

تتمة فضول

أُرسلها بين رضاء اهل الرقة واستياء اهل الجفوة اتم للاولين امنيةً وأُثير حمق الاخرين وما اسعدني بولاء من رقّ واغناني عن الجفاة اللائمين

اوجزت في بدء فضولي فما انجزتُ وعدًا مقدسًا تطالبني النفس اليوم بوفائهِ وهي وحق الحق لعلى علمٍ بانني ممن يعد ويفي

وما اطيل الكلام بل ابرزه مجملاً مفصلاً ضيقًا موعبًا يسحر الالباب ويقضي بالعجب العجاب فيا عصبة الآداب انتصري ليراع من يرى العدل في حكاية الحق ولو كره المبطلون

قرأ الناس جزء هاته القصة الاول وما رأيت فيهم من يلوم وإنما ابصرتُ في زاوية الجهل شبحاً يتلوها ويترنح اعطافه الخشبية طرباً فيبتسم عن انياب فيل ضاحكاً فاتحاً شدقه يقول لله من شهدٍ اتمتع بهِ ناكراً . . فما يليق بي على ما عرف الناس مني من الاداب « الخاسرة » ان انادى بفضل « العفريت » بل اللؤم فاعلم الناس بعدم لياقة الوقوف عليهِ من الجنس اللطيف وارى في المنام ملائك القصة . . . تبتسم لي مرفرفةً تزدري بخادع نسكي . . . وما كنت من الراشدين

ورأيت من أثارَ على العنوان كل حربٍ عوان يقول ما رأينا من قبل مثل هاته الجرأة . . . فاجابهُ الجنس اللطيف او ما كفى ان اباءك ما كانوا يهوى الحرية مولعين حتى تسعى الآن في اخماد نارها منتقداً على انصارها منكتاً على اعوانها مضيقاً علينا قاضياً بحرماننا من الوقوف على عجائب ما حوت وما رشدتَ . . . اذ ربما كانت العبرة في العلم بنتائج اخبارها بل انما انت تسعى في منعنا من العلم بما توطدت عليهِ دعائمها من عظيم الاخذ بناصرنا والذود عن حقوقنا التي امتهنت زمناً طويلاً . . . فما اقساك قلباً . . . ان قضاءكَ بعيدٌ عن العدل مناف لواجب الرفق فلا غرو ان دعى فرط حرص

الأمر الى عصيان المأمور ولا لوم عليهِ ان كنت ممن يعقلون رأيت وما كان من همي ان ارى . . . فذلك واجب حفظة ارباب الصحف في بلاد الافرنج لهم يأخذون كل كتاب حديث الظهور فيقرأونهُ قراءة منتقد سليم من الاحقاد فأن رأوا فيهِ مطعنًا شرّعوا اسنّة الاقلام نحوهُ وأثاروا عليهِ حربًا عوانًا يكشفون ستر هفواتهِ ويفضحون سرّ سقطاتهِ ولا يسدون ابواب صحفهم في وجه المؤلف واعتراضاتهِ فلعل لهُ عذرًا وهم يلومون . . . فيدرأ عنهُ تبعة المؤاخذة ان كان على حقٍ فيما قال وهدى فيقف الناس على الحقائق من خلال المناظرة ويعرفون الصحيح المليح من الفاسد الكاسد ولا يرون لصوص التحرير عاملين على تنقيب المكاتب التماس سرقة يلفقون منها كتابات يسمونها تاليفًا . . . وان جزاء السارق لعظيم ولص الاداب اعظم منهُ وزرًا فدأبهُ السرقة والانتحال يسرق الجواهر الثمينة فيطرحها بين الخرز الوضيع ولا يستر الوجه امام الناس تخجلاً بل ويل لمن يقدم على التأليف عندهم وهو غير كفوءٍ لهُ فلقد يعرض نفسهُ لسهام الازدراء اذ ليس القصد من كتابة القصص سرد موضوعها فالموضوع سهل الوجود والتصور وانما الغاية من تحرير الكتاب علو شأو انشائهِ فما نجح المؤلفون هنالك الا برقائق كتاباتهم

الدرية ينظمون ابيات الغزل رقيقةً وينثرون جمل النسيب دقيقةً فيسحرون الالباب بما اوتوا من رقة الوصف والتشبيه ويستدعون الابصار الى لطيف نتيجة ما يكتبون

*

*

١

ملالٌ وآمال

فها قد عاد غوستاف الى دار خالهِ معرّضاً لسهام ملام استحقهُ على اعمالهِ الغابرة غير ان الميرالاي لم يبادئهُ بوعيدٍ او سبابٍ بل انسحب كلٌّ منهما الى حجرته الخصوصية لا يفوه ببنت شفه فلا غرو ان داعياً مهمّاً طرأ على اخلاق الميرالاي فغيرها تغييرًا وجعلهُ يلتمس من الصمت راحةً من مشقة صراخٍ ونصحٍ يعودان بالويل عليهِ ولا يثمران

ولقد تحيّر غوستاف من اعتدال خالهِ ولم يدرِ الامَ يصرف معناه الاّ انهُ عزم على ان يكون لذلك الرفق اهلاً بحيث ظلّ في البيت عدة ايام عائشاً بهدوٍ وسكون يشتغل معظم نهاره وينام حالما يخيم الظلام

وكان الميرالاي يلاحظ ابن اختهِ ولا يفوه بكلمة فوضح له ان غوستاف كان من طبيعةٍ لينةٍ لا تجيء بالعنف والقوة بل لو قست معاملته لعقَّ وما ارعوى واذا عومل باللطف والتؤدة غدا هاديًا ومطيعًا

فقال الميرالاي في نفسهِ « لا بد لي من مجاملة غوستاف والرفق بهِ فهو فتًى في زهرة العمر ولا بأْس من فرط طيشهِ فانهُ طيب القلب سريع الحس ولا لوم عليهِ في حب النساء فلقد همتُ في حبهنَّ زمنًا ما كان احلاهُ ويا ليت تسمح لي الامراض والاوصاب فاحبهنَّ الان ايضًا اذ يجب قبل ان نوجه سهام الملام الى الغير ان نذكر اعمالنا ولا يهمني من امر غوستاف الاَّ ان لا يختلط باهل الفسق والفجور ولسوف ابذل جهد المقل في زواجه سعيًا . فان الزواج تربة الطيش وخاتمة الحب فتسكن ثورة طيشهِ بالرغم عنهُ ويصبح هادئًا مقتصدًا لانهُ عندما يسمع زعيق زوجتهِ ويرى اولاده يبكون من حوله بنغمةٍ واحدةٍ ولا يرتضون تفتر منهُ العزيمة وتنقطع عن الضحك والسرور رغبته

وما مرَّت تلك الايام على غوستاف الاَّ مرَّةً فاشعر بثقل حمل سكونه وسعى اذهابًا لهمومهِ في ابدال مبروك بخادم اكثر منهُ دهاء لانهُ لم يذهل حال رجوعه الى دار خالهِ

عن مجازاة المسكين بما استحق لكي يحسن في المستقبل القيام بوظيفة الخادم الانكليزي غير ان مبروكاً ما خُلق ليكون خادم عفريت بل ما كان يدري من دسائس الخفف شيئاً وبينا كان غوستاف يقتل في اعطاء التعليمات اوقاته دعاه خاله في صبيحة احد الايام الى حجرتهِ فاسرع منقاداً وديعاً ودنا منهُ بخضوع ابن الاخت الذي لم يبقَ في جيبهِ بارة فقال الميرالاي لهُ

— لاحظت يا غوستاف عزمك على التوبة واخذك باسباب الرشاد ولا غرو ان تكون مللت عيشة الغرور التي تهتَ حتى الان في فيافيها وارى ان لا بد لي من الرجوع الى فكري القديم لاتم ما بدأتُ بهِ فلقد حكمت بلزوم زواجك

— أعندك يا مولاي لي عروسٌ اخرى جاهزة

— لا . . بل وسعت الان حلمي لحد ان تركت لك حرية الاختيار فهل يرضيك ذلك مني

— كيف لا يا سيدي . . . فالأمر يجمل هكذا . . . ومن اين انتقي لي زوجةً

— لا تنتقيها طبعاً من رفيقاتك اللأتي تختلط مع اوليفيه بهنَّ ولا من ما هنالك . . بل تأتي معي الى منازل بعض اهل الوجاهة والاعتبار فترى هنالك فتيات حساناً فتختار لنفسك

منهن من تحلو لك وتتزوجها

— سأعمل ما يرضيك يا سيدي

وجعل غوستاف يرافق بعد ذلك خاله الى منازل بعض الاعاظم حيث رأى في الحقيقة نساء اعجبنهُ وسلبنَ بالحسن لبه واسترقنَ باللطف قلبه غير انهُ ما كان يختار منهنَّ زوجة وكلما كان الموسيو دي مورنغال يراه مهتمًا بشأن صبية حسناء يتظرف بلطفهِ امامها ويرشقها بجنون نظراته يظنهُ مغرمًا بها هائمًا ويسأله عند الرجوع الى البيت عن احساساتهِ من نحو تلك الفتاة قائلاً

— كيف رأيت يا غوستاف تلك الفتاة الشقراء

— بهية حسناء ظريفة ذات ذكاء

— أتتزوجها

— لا . . . فهي تتظاهر بالذكاء كثيرًا وكانت تجتهد عند محادثتي في ان تسمع الاخرين كلامها وترفع صوتها لتستدعي انتباه الحاضرين وهي بالاختصار خطيرةٌ . . . وانا لا اريد مثل هذه امرأةً

— وتلك السمراء التي كنت تشغفها بلطائف حديثك فكيف تراهـا

— حسناء لطيفةً بمعتدل قوامٍ وصوت رنان .

— اتخذها لك عروساً

— لا والله ... فلقد كانت تغني مع احد الشبان محاورةً (١) بجنو زائد ولا يجوز للفتاة ياسيدي ان تبدي للناس في الغناء تاثير خفي احساساتها

— وتلك الفتاة الفرحة اللطيفة التي ترقص بعظيم اتقان

— هي والله فتنة الحسان

— اتحبها

— وكيف لا احبها ... فان عينيها الخبيثتين تهيمان فتفهمان كثيراً ... وتبتسم برقة تسلب الالباب ... وترقص بخفة ... ودربة ... بالغة حدّ الكمال

— فهذه اعجبتك اذاً ولا تجد صعوبة في اتخاذها لك امرأةً

— لي امرأة ... حماني الله منها .. فهي تحب الرقص كثيراً وتجري وراء من ادركَ منهُ شأواً عالياً فكيف تريد ان اقوى على استمالة قلب من لا تميل الاّ الى مائل القدِّ

— لله من فرط انتقادك فلأنت اصعب من رأيت

— اوَلا تراني مصيباً

— انك ترى كل النساء متطيرات

— كل النساء متطيرات وانما قد يختلف التطير فيهنّ

١ المحاورة ضربٌ من الغناء يغنيه الرجل والمرأة على التناوب

كثرةً وقلة فذلك عندهن شيءٌ طبيعي يقوم من لطفهن لمسامحته ألف شفيع فلمثل حسنهن يليق الاكرام الذي يضنّ الرجال به لربات الفضيلة وشأن النساء لبحث قبل كل شان على ما يوليهن عظيم القبول ويولي سلطانهن اعزازًا وتراهن عاملات على حفظ تلك الحقوق من زهر ربيع عمرهن لحد ثلوج شتاء عجزهن

— لهن والله على الاصابة وبماذا تدعونا نحن الذين نخدعهن في فصول حياتنا الاربعة

— نحن يا سيدي قتلى الغنج والجمال

— كذبت وايم الله فانت تدعي الظلم زورًا فكيف تكون قتيل الغنج والفتنة وانت تعشق ست وصائف مرة واحدة وتميل الى السمراء ولا تبخل بوصالك على الشقراء وتفتن الام والابنة في آن واحد وتشاغل الست والخادمة وتهوى الاميرة والفاعلة . . . فقل بحقك ان ذلك فجور سافل . . . نعم ان الرجال فساقٌ مفسدون وانت اكثر من كل من عداك تشكو النساء ولا تشكو نفسك عندما تريد ان ينتبهن دائمًا اليك ويغمرنك بانعامهن عليك وان لا يضحكن على عشقك كلما تواقعت على اقدامهن ميتًا صريعًا تقطع الكلمات من فيك تجارٌ تنهدات قلبك

— حنانيك يا خال فما خدعتُ قط واحدةً . . .

— كفى ما جرى . . . فهل تتزوج ام لا

— اتزوج ياسيدي ولكن عندما اجد لي امرأة كاملة المعاني

— انت تحاول خدعتي فما في الطبيعة من كائن كامل فكلنا نخلق بعيوب تصلحها التربية ويقتلعها التعليم من جذورها ولست لا والله من زعم القائلين باننا نخلق مثل الحمام طهراً ومثل الشهد حلاوة اذ لو كان الامر كما يدعون لما رأينا الطفل الصغير يحتدم في المهد غيظاً ويصبح من دلال امهِ واعتناء مرضعتهِ فظاً وقحاً لصاً وخبيثاً . فان العيوب التي نولد فيها تمسي موبقات مهلكة اذا لم يعتنِ الوالدون بتهذيبها تساعدهم تربية المعلمين اهل الفضل والشهامة ومهما بلغ الانسان وشب لا يجب عليهِ الانقياد الى اتباع شهوات النفس الامارة بالسوء بل واجب علينا نحن بني الانسان ان نتخذ المرشد العقلي لنا قائداً فهو مشكاة تدلنا على المينا الامين وتهدينا في اعمالنا الى صراط مستقيم ويا تعس من اعطى لمنبهه السري اذناً صماً فهو في ضلال عن الحق مبين غير انهُ قد يتأتى ان يغلب الضعف البشري احياناً قوى تعلقنا مهما كان العقل لها ضابطاً ولم ارَ قط رجالاً تفردوا بالرشد

والكمال طرا قادرين على ردع اميالهم فليس في التاريخ ما يدلنا على بلد يمكن ان نتخذ منه لنا مثالاً بل بالعكس يعلمنا عن الفساد الحاصل في كل زمان

فمن ذا يستطيع احصاء عدد الموبقات والجرائم المتنوعة التي كانت تحصل في البلاد الشهيرة من مثل بابل ونينوى وغيرها بل في بلاد اليونان المشهورة بالحكمة والرشاد فهي ما كانت مؤلفة الا من ممالك صغيرة تختبط دائمًا وتثور لتغزو بعضها بين ظلم المستبدين ونهب الاشقياء واحزاب النبلاء وتعصب الامة وتوفر اسباب الخيانة والاغتيال والعبودية التي كانوا يموهونها بظاهر اسماء الحرية المزخرفة ومثلهم الرومان فما نرى في تاريخهم الا عيوبًا وموبقات من مثل حروب جائرة وعصيان ذميم وعقوق قبيح فاصبح الضعيف بين تلك العوامل السافلة هدفًا لسهام النوائب والمصائب تنصب عليه الآلام من كل جانب حتى ترى ان الكمال بعيد عن تلك الربوع لم يزرها ولم تره عين اهلها ولو نظرنا كذلك الى تاريخ ابتداء تمدن الممالك الاوربية لوجدناه بهيًا من وجه ان كثيرين من اصحابه كانوا يقتتلون ليدافعوا عن نساء يعشقون ويكرسون ذواتهم للمدافعة عن ذلك الجنس اللطيف المعروف بالضعف غير ان الشر كل الشر كان باهل ذلك

الوقت محيطاً فكنت ترى اهل الفاقة مهضومين من ذوي السلطة وذوي الاستبداد مهضومين من المستبدين يجبر الاباء ابنةً مسكينة على تضحية زهرة بكارتها لاحد الملاك الذي تمجه نفسها ولا تهواه . . . ويستعبد الاقوياء اناساً يعاملونهم بقساوة ينفر البرابرة من هولها وما ساد الهناء الاَّ في عهد هنري الرابع ملك الفرنسيس فذاق الشعب في ايامهِ بعض سعادة بعيدة عن ان تكون كالاً لان العصيان والحروب الاهلية والتعصب والسم والاغتيال كل ذلك انتهى بال ذلك الملك الجليل الذي مات مغتالاً بايدي الخونة المنافقين فاين الكمال في التاريخ القديم والحديث واين التعقل والثبات انها تالله لاسماءٌ بغير مسميات ويا ويحي على كلام طويل اقصاني عما كنت اقصدهُ وما ذلك الاَّ بسببك انت الذي تزعم امكان وجود امرأةٍ كاملةٍ على استحالة وجود الكمال فبعد ذلك رضيت بان نتزوج ام لا

ــ عفواً يا سيدي الخال عفواً فما في الامر ما وهمت من الصعوبة فلو أُريش الفؤاد مني بسهام عين نرجسية ورنت الحسناء اليَّ بلحظٍ يقودني الى اشراك حبها يقضي الامر حالاً فان التي يحبها الانسان هي عنده روح الكمال فعين الرضى عن كل عيب كليلةٌ

ـ يا ليتك اعجلت هذا الكلام فكنت كفيتني مؤنـة فضول في الكمال طال وما استطال فابذل الجهد اذا ما استطعت في عشق غانية فان العشق صح معك مرارًا

ـ قد يسهل وجود الخليلة . . . وانما المرأة . . . آواه يا خالي

ـ وهل لا يُعمل مع الواحدة ما يُعمل مع الاخرى

ـ اجل

ـ وألا يُرزق الانسان من الخليلة اولادًا مثل ما يُرزق من الحليلة

ـ اصبت ولكن . .

ـ دعني منك وما تستدرك فانك عات عنيد ـ ويا عجبي من الشبان يفسدون النساء وما يشفقون ويقرنون هام من يصحبون ويشقون البنات وما يرحمون ومتي راموا الزواج يقسوا في اختيار العروس . . . وما يلينوا فدعني بالله من هزلك . . انك لو علمت من اخلاق النساء كل خفي ووقفت من خداعهن على كل دقيقة وراق ان زوجتك خيانة عهدك فلا تأمنن والله كيدها فهي تفعل ما تشأ امام عينيك كانك الزوج الأبله الذي لم يتدرب ولم يختبر ابدًا

ـ ما شككت قط في ذلك يا سيدي . .

ـ فاصلح اذا شأنك وهيا بنا الى المضاجع

*

٣

الحبُ الصادق

وفيما كان غوستاف في احدى الليالي عائدًا من التياتر وحده رأى على المصطبة المجاورة لبيت خالهِ امرأة فما التفت اليها وقبض على حلقة الباب ليضربها فاوقفه صوتٌ حنونٌ يقول

— تفوت . . . ونجخل بالسلام

— الله اكبر هذا صوت مَنْ . . .

— افما عدتَ تعرفني

— لعلكِ سوسانيت حبيبتي . . .

— نعم يا حبيبي فانا سوسانيت المسكينة

— ولِمَ جئتِ باريس

ــ انيتُ لاراك ...

ــ لتربني ...

ــ نعم وها انا ذا في انتظارك من منذ ساعتين فقد قيل لي انك خرجت وسوف تعود فلم ابتعد لذا عن بيتك

ــ روحي نداؤك يا عمري وبصحبة من انيتِ

ــ جئتُ وحدي

ــ ووالداكِ

ــ لم يعلما سفري

ــ وهل تجدين على فرقتهما صبرًا

ــ كان من همها ان يكرهاني على زواج نيقولا فلم ارضَ لاشتغال افكاري بك دائمًا .. .ولقد قررا بالامس ان يكون الاحد يوم زواجي... فهربت في ذا الصباح حذرًا من اقتران من لا احب ولا اهوى

ــ وكيف اهتديت الى داري

ــ كنت علمت من مبروك اسم الحي ونمرة الدار فحفظتها في ذاكرتي ومالي اراك قلقًا فلعلك استأتَ من روءيتي

ــ اواه كيف استاء من روءيتك والقلب اسير محبتك غير اني في حيرةٍ لاعلم ما اعملُ

ــ ليس في الامر صعوبة فانا اسكن عندك

ـــ ولكن يجب ان اهيئ لسكناك دارًا ولمنامتك سريرًا

ـــ انام معك . . . فانت تذكر . . . مثل ما كنا نعمل في دارنا

ـــ لو كنت في الدار وحدي لهان الامر عليَّ وانما انا في بيت خالي ولا اقدر ان اعمل ما اريد شيئًا

ـــ يا ويح قلبي فما عدت اذًا يا غوستاف تحبني . . . فالأمر ظاهرٌ اذ انك تطردني وعنك تقصيني

ـــ كفكفي الدمع عزيزتي ولا تحزني . . . فكيف تتوهمين يا غزالي امكان طردك وانت مكان الروح من بدني . نعم انك اسأتِ في ترك عائلتك غير اني كنت في ذلك سببًا فلا اتخلى والله عنك وانما اود لو امكن كتمان ذا الامر عن خالي

ـــ سأعمل كل ما تريد . . . فلا هناء لقلبي الا بالوجود معك

ـــ فانا ادخل اذًا . . . وادع الباب مغلوقًا وفيما انا احادث البواب ادخلي بسرعة وتخفي في عطفة الحوش . . . وبعد ذا نرى اذا كان الخدم نائمين . . . فهمتِ

ـــ نعم فكن في راحة

وكان غوستاف محتسبًا من فضول بوابه الذي كان

مثل ابنهِ مبروك اباهَ ثرثارًا

فدخل و وقف امام نافذة غرفتهِ فقال هذا لهُ ان قد سألت عنهُ فتاةٌ مجهولة وفيما كان غوستاف يجيبه دخلت سوسانيت واسرعت الى اقصى الفسحة ـ فقفل محبها الباب وجرى نحوها قائلاً

ــ ها انتِ في البيت حبيبتي فهلمي اذًا الى حجرتي … وعسى ان لا تقابل على السلم احدًا

واخذ يدها فارتقيا سلمًا يؤدي الى غرفتهِ وغرف خالهِ حتى وصل قاعدة السلم فوقف عند باب حجرتهِ ورأى الفسحة الكائنة امام غرفة النوم مقادةً فاصعد سوسانيت على سلم اخر ودخل حجرته فوجد هنالك مبروكًا في سنة النوم فاستيقظ المبروك وسأل غوستاف عن خدمة يقضيها ليزى على الذهاب الى حجرته على سطح المنزل فطن غوستاف الى انهُ سيلتقي بسوسانيت على السلم فعزم على انزاله الى المطبخ وقال لهُ

ــ رُح يامبروك الى المطبخ وهات لي ما اتعشى بهِ

وما نزل الخادم حتى جاء غوستاف بسوسانيت الى حجرته فعاد مبروك يحمل ديكًا محمرًا وخمرًا و بينما كان يدنو من المائدة ليضع الزجاجة والصحن عليها كانت الفتاة في غرفة النوم تفتش في الظلام على كرسي لتجلس فقلبت احدى الموائد

فاصفر وجه مبروك واسقط الصحن من يده فوقع الديك على الارض متلوثًا وكبر الخوف عليهِ فما عاد يجسر على رفع عينيهِ وتحير غوستاف في الامر فلم يدرِ ما يقول وبعد برهة صمت قال مبروك وفرائصه ترتعد جزعًا

— اما سمعت سيدي . . .

— نعم سمعت فماذا دهاك

— هذه اللصوص في حجرتك بلا ريب . . . وقد بقيت يا ويلاه ساعةً هنا وحدي ولو كنت اعلم . . .

— دع هذه الخارف فانما انت تحلم

— سيدي . . . فهل جرت القرقعة التي سمعنا من غير فاعل

— لا بد من يكون الكلب فاعلها

— لا فان الكلب نام من مدة . . . فهم اللصوص حقيقة . . . وها انا ذاهب لايقاظ كل الراقدين

— ويلٌ لك ان فعلت فرُح الى حجرتك ونم بسلام

— ويلاه يا مولاي فكيف تبقى هنا وحدك

— قلت لك رُح ونَمْ وحذار من ايقاظ احد لئلا اطردك في الغد

— وألا تخشى يا سيدي من ان نقتل مغتالاً

ـ لست اخاف شيئًا فانت معتوهٌ فاذهب ولا تضايقني

ـ سمعًا وطاعةً ... واما انا ذاهبٌ لأعمر قرابينتي فنادني عندما تحتاج لي . . فاطلق النار في الفضاء واوقظ كل النائمين

ـ دع عنك هذه الاوهام وخلِ القرابينة جانبًا والاَّ كسرتُ بعصاي في الغد ظهرك فاذهب الى حجرتك ونم

فذهب الخادم آيسًا وخلا الجو لغوستاف وسوسانيت فتمكن من ان يراها ويحادثها ويعانقها بقدر ما يحاوله وآنس في وجهها حسنًا لم يره من ذي قبل وفي معاني جسمها كمالاً بديعًا وقد استسلمت الفتاة للعناق والتدليل سعيدة برؤية حبيبها غوستاف وبسماع وعده بعدم طردها من عنده وطفح السرور على قلبها فلم تسأل على هذا الهناء مزيدًا

ثم قاما الى العشاء فروت سوسانيت لغوستاف اخبار سفرها فانها جاءت من ارمنونفيل الى باريس سعيًا على الاقدام سائرة مسافة واحد وثلاثين ميلاً بدون اخذ راحة حذرًا من ان لا تصل الى حبيبها سريعًا فتورَّمت رجلاها وتخلعت من التعب اعضاؤها غير انها ما كانت تشعر في الطريق بادني تعب لان الحب كان يضاعف عزمها وقواها

فقال غوستاف في نفسهِ يا لهف قلبي عليها فهذه والله صادقة في حبي .ولم يجسر على ان يبين لها الاوجاع التي خلفتها لوالديها بهجرها هكذا اذ كان يشعر بانها انما ارتكبت ذلك الخطاء حبًا بالمجيء اليهِ . . . بل كيف يجسر على توبيخها وهي تظهر على عظيم حبها لهُ كبير دلائل

فقال غوستاف في نفسهِ لا ريب في ان القدر انما يريد ذلك ولقد كان مسطورًا على سوسانيت أن لا تقترن مع نقولا بسبب ذهابي الى ارمنونفيل . . . فلنغنم السعادة الحاضرة ولا نتعب بحوادث المستقبل افكارنا

قال غوستاف ذلك وانام سوسانيت في سريره فلفت بين ذراعي محبها تلك الليالي التي نقضت بالحب والهناء والتي كانت بدء اوجاعها وتعاستها ثم نامت بجانب غوستاف وهي تشعر بسعادةٍ عظيمةٍ غير ان الفتى كان في فيافي افكاره هائمًا متحيرًا في امره لا يدري كيف يخفي سوسانيت عن عيني خالهِ لانهُ اذا قضى سوء الحظ بان يجد المير الاي في غرف ابن اخيهِ الفتاة الفلاحة يكون غضبه عظيمًا كبيرًا ويشتد غيظهُ اذا اتصل الى العلم بان تلك الفتاة هجرت الاهل والاوطان حبًا بغوستاف سابيها . . . فكيف ينفي كل هذه الدواعي الداعية الى الكدر . . أبأرجاع سوسانيت الى

اهلها الذين لا بد من ان يفتصلوا منها بصرامةٍ فادحةٍ ...
كلا فلن يجد من قلبهِ استطاعةً ... لان سوسانيت كانت
فتنة الحسان وآية الجمال وربة الرقة والذكاء ... فمن ذا
يجد من قلبهِ جسارةً على حرمان نفسهِ بنفسهِ من مثل ذلك
الكنز الثمين ... وبالاخص مثل غوسناف الذي لم يتجاوز
العشرين ربيعًا فان قلب فتى من عمره لا يسلم بمثل ذا ابدًا
فقال في نفسهِ — تبقى سوسانيت ههنا عندي اخفيها عن اعين
الرقباء واكلُ بقية الامر الى حكم القضاء

*

*

٣

يوم النحوس*

واستيقظ غوستاف في صباح اليوم التالي متأخراً على ان سوسانيت ما كانت صحت لان بعد قطعها مسافة واحد وثلاثين ميلاً ونومها مع حبيب قلبها كان احتياجها الى الراحة عظيماً فنظر صاحبنا الى الفتاة المسكينة التي تركت من اجله اهلها واصحابها وسقط رأسها وحزن بالرغم عنهُ غارقاً في بحر افكار مزعجة وبات مضطرباً على مستقبل سوسانيت قلقاً

ثم سمع على باب حجرته قرعاً فقام من سريره يمشي بخفة لئلا يوقظ النائمة حتى اتى الباب وسأل

— انت من

— فاجاب المبروك انا ذا يا سيدي

ـ وما تريد

ـ كان من عادة حضرتك ان تستيقظ في الساعة الثامنة وبما اننا الان في الساعة العاشرة فقد خشيت من ان يكون قتلك اللصوص . . . وحضرة الميرالاي في انتظارك للفطور

ـ سآتي حالا

ـ وألا تعطيني الملابس والحذاء لتنفيضها

ـ سأعطيك اياها فيما بعد فدعني بسلام

وعاد غوستاف الى الفتاة فرآها ايضاً نائمة فوقف لا يدري ما يعمل فقد كان الميرالاي في انتظاره ومن الواجب ان يذهب اليه ولكن ماذا تقول سوسانيت عندما تصحو وترى نفسها وحيدة وتحتاج الى طعام فلا تجد من يأتيها به . . وكيف يخفيها عن مبروك الذي كان يرتب في كل صباح حجرته ويصلح سريره فلو لم يكن ابله عبيطاً لامكن الركون اليه وايقافه على باطن الدسيسة غير ان الاعتماد عليه كان مستحيلاً اذ ما كان فقط جاهلاً بل كان ثرثاراً كثير الكلام احمق لا يستطيع على كتمان ما بصدره صبراً ولا يخفي عن ابيه شيئاً ومتى صارت المسألة في علم البواب قل انها نشرت على جدران باريس بالمطابع فقال غوستاف في نفسه لله ما اعظم حيرتي فانا في ورطة هائلة فاكل الى الله امري واذهب

الان الى خالي اقفل باب الحجرة على الفتاة وامنع مبروكًا من التحدث بهذا الشان ثم ارى في وسيلةٍ تنيل سوسانيت ما اتمناه لها من الراحة

فارتدى بثيابهِ وجاء الى الفتاة المحبوبة وهي غارقة في نومها الهني فقطف من ثغرها الدريّ قبلةً شهيةً وخرج من الحجرة قافلاً وراءه بابها واضعًا مفتاحها في جيبهِ وراح نحو خالهِ فرأى في الفسحة مبروكًا في انتظاره فقال لهُ

— اياك من الذهاب الى غرفتي لئلا تقلب اوضاعها فقد اشتريتُ يامتين اريد تربيتها و بدخولك هناك تجفلها

— لا يا سيدي فانها لا تجفلان مني فانا بتربية الاطيار خبير

— اقتصر ولا تتداخل فيما لا يعنيك

— وهل تصلح اليامتان يا سيدي سربرك

— اصلحهُ انا بيدي ففي ذلك لي تسليه

— انت صاحب الامر

— وحذار من التحدث بذلك امام المير الاي وامام ابيك . . . والاَّ فانت تدري بان سحب اذنيك ايسر ما ينالك من القصاص

— لا يا سيدي فلا افوه بكلمة . . . بل انت حرٌّ تصلح سريرك بقدر مـا يحلو لك ففي ذلك لي راحة اذ تخفف

الاعمال عني غير انك او احتجت الى تنفيض الملابس ومسح الحذاء

— تجدها في الفسحة

وذهب غوستاف الى حجرة خالهِ الذي كان على المائدة ينتظر قدومه متظرفًا في لبسهِ فلم يلحظ غوستاف في البدء ذلك وانما سمع بعد الفطور خالهُ يسأل عن العربة اذا جهزت فاندهش وسأل

— تنوي الخروج سيدي

— نعم وانت تأتي بصحبتي

— انا . . .

— نعم انتَ فليس فيما اقول ما يوجب ان تحملق عينيك هكذا

— عندي يا سيدي في ذا الصباح مهمة اقضيها

— وما هي . . . انك تقضيها في يوم اخر فما تريد ان تفعله اليوم اجرهِ في الغد

— بل افضّل

— لا فلا بد من ان تجيءَ معي حالاً فان الحصان في انتظارنا

فتبع غوستاف خالهُ عن غير طيبةِ خاطر على امل ان

بنال حريته بجيائه بجنالها فتستريح سوسانيت في ذلك الوقت على مهل وبما انها تعشيا بالامس جيداً فهي لا تجد في انتظار رجوعه صعوبة

فركبا العربة الصغيرة وساق الميرالاي حصانها فطار بها حتى قطعا المدينة ولم يقفا فحزن غوستاف حين علم انهما متجهان نحو قنطرة النجمة وقال مضطرباً

— أتسير الى خارج باريس يا سيدي

— انا بذلك ادرى

— ا تذهب بي الى الخلاء

— اذهب بك الى دار لطيفة متأكداً بانك ستجد هنالك عظيم تسلية

— وانا اشك في ذلك ...

— سوف نرى ... وعلى كل حال فلا يصعب عليك ن تضحي لي نهاراً ...

— تقول ... نهاراً

— وفي هذا المساء تحمدني

— في هذا المساء ... فهل من نيتك ان تبقيني معك حتى المساء

— بل ربما قضينا الليلة عند الموسيو دي جرانسيير

ـ أمضي النهار . . . ثم الليلة . . . فلا والله فذلك لا يتم ابدًا

وجعل غوستاف ينفخ من عظيم غيظه وفقدان صبره وفرط حزنهِ وقد زين الوهم له ان يثب من العربة ويترك فيها خاله وحيدًا غير انهُ اعرض عن ذلك العزم بعامل تأملات اوقفتهُ وردت اليهِ بعض السكون فما كان يجسر على مناداة خاله جهرًا ولا الاخلال بواجب اعتباره فضلاً عن انه يعرض نفسهُ الى كسر ذراعه او حطم ساقهِ ولا يتمكن من الرجوع الى باريس حالاً فليس لهُ مثل الصبر ملجأ يتسلح باهدابهِ وينتظر فرصة حسنة يتجنب فيها دار لموسيو دي جرانسيير فقال في نفسهِ

ـ اواه يا حبيبتي سوسانيت فماذا عساك ان تقولي وماذا تعملين في نهارك ثم قال ـ اروي لها ما جرى لي واعانقها تنسى في الحال ارجاعها الماضية . . . فهي تجد بين ذراعي احسن جزاء عن الم النهار وحزنه

وبينما كان غوستاف هادئًا فيما يتعزى بهِ كان الميرالاي يروي لهُ عن اعمال المسيو دي جرانسيير صديقهِ القديم ورفيقهِ في الجهاد على ان المسيو مورنفال كان يذري كلامه في مجاري الريح وباطلاً يجهد النفس في تهذيب .

صور المعامع والهجمات التي اشترك فيها صاحبه الان غوستاف ما كان يسمع من كلامهِ حرفًا بل ما كان يفتكر الا بسوسانيت المسكينة التي تُقضي عليها بان تمضي النهار بسببه صائمـــةً

ولما رأى جليسي اذ يحدّثني اني فهمت وعندكم عقلي فقطع حديث خاله حال انقاده في وصف حادثة حربية واحدة

— ألم نزل بعيدين يا سيدي

— الله الله أبمثل هذا الاهتمام نسمع اخبار مخاطري . . .

ونقطع الحديث عليَّ حالما اعلمك بانني كنت محاطًا من الاعداء ومجروحًا في جبهتي

— وانما انت الان يا سيدي بتمام صحةٍ ولسنا في ساحة القتال وها قد تجاوزنا كوربيفول

— بالله قل لي ماذا دهاك فما رأيتك قط منهمكًا في سرعة الوصول الى محل نقصده

— في ساقيَّ يا سيدي بعضُ خدوش وركوب العربة يؤلمني . . .

— لو اصابك ما اصابني اذ بقيت اثنتي عشرة ساعة في ساحة القتال مجروحًا مطروحًا بين الاموات والمنازعين لما

كنت تشكو الان في ساقيك خدشاً وها قد وصلنا فسكن روعك وانظر الى تلك الدار الجميلة التي من عن يميننا فهيَ دار الموسيو دي جرانسيير

فنظر غوستاف اليها وقد رآها تبعد عن باريس مسافة سبعة اميال تقريباً وهي مسافة يجتازها الجواد في اقل من ساعةٍ ثم نزلا امام بيتٍ بهيّ الظاهر يشرح صدر الناظر فجاء الخدم يأخذون العربة الى الاصطبل فقال غوستاف

— لا تحلوا الجواد منها

— بل حلّوه ليأخذ بعض الراحة

فاحتدم غوستاف في الباطن غيظاً وسار وراء خالهِ والغم ملء فؤاده حتى دخلا قاعةً فسيحةً فقدّم الميرالاي ابن اخته الموسيو دي جرانسيير فبش في وجه غوستاف وقابلهُ بعظيم ايناس وكبير رقةٍ اجابهُ الشاب عليها بعبارات باردة لا معنى لها ولا طلاوة فيها فقال الميرالاي لصديقهِ

— اسأَلك يا عزيزي لغوستاف عفوًا فقد تأتي عليهِ ايامٌ يهرف فيها بما لا يعرفُ وجئتك والله بهِ في يوم من ايام نحسهِ

فاثر هذا الكلام في غوستاف فاحمرَّ وجههُ خجلاً واجتهد في ارجاع ذاهب صبره وتسكين آلام نفسهِ حتى دخلت

القاعة صبية حسناء تخطر في حلةٍ بيضاء فقال المسيو دي جرانسيبر لضيفيهِ

— هذه اوجينيا ابنتي العزيزة فاعرفكما بها

فنبه الميرالاي ابن اخته الذي كان يتامل الحدائق لاهيًا وامره بان يحيي ابنة صديقهِ فالتفت غوستاف ورأى امامهُ فتاة بديعة الحسن نعاد الى ما عُرف بهِ من الرقة والمجاملة واظهر كل صفات كماله واختباره حذرًا من ان يبدو بمظهر الخشونة امام سيدةٍ تدل سيماؤها على انها جمعت بين الجمال واللطف والرقة فابتسم الميرالاي لاهتمام ابن اختهِ ودنا منهُ قائلاً

— أوما زلت غير راضٍ عن مجيئك معي

فلم يجبهُ غوستاف بكلمة بل جعل ينظر الى اوجينيا الحسناء ويدير عنها وجهه ليفكر بسوسانيت المسكينة ويتنفس الصعداء

ثم جاء من اهل المدينة قومٌ يحملون من الازهار بديع باقاتٍ يقدمونها الى ربة الحسن اوجينيا فسأل غوستاف خاله عما اذا كانوا في يوم عيدٍ فقال

— نعم فاليوم عيد مدام دي فونبلّ

— ومن هي مدام دي فونبل . . .

— اوجيفيا ابنة الموسيو دي جرانسيير

— فهي اذًا متزوجة

— كلاً بل هي ارملة وإيرادها السنوي خمسة عشر الف فرنك وما هي غنية في المال والجمال فقط بل جمعت بين الرشد والفضل والصلاح والذكاء والرقة فما قولك يا غوستاف

— اقول انني لست فيما تصف من رأيك وانا على ثقة بانك انما غاليت في بديع وصفك

— بل سوف ترى انني لم ابلغ شأو الحقيقة

— ولماذا ما عرفتني بها من قبل

— لانها كانت في تورين غائبة وما اردت توجيهك الى ذلك الجنان حذرًا من ان تأتي هنالك بمثل ما دهيت المسكين دبرلي به فانا بقدر كمالك اعرف

ونزل الزائرون بعد ذلك الى الحديقة التماس النزهة ريثما تحل ساعة الطعام فصار غوستاف يبحث عن وسيلة بها ينال الحرية فما افلح ورأى ان الخروج بدون ابداء عذره من دار لم يزرها من قبل وقُوبل فيها بغاية البشر والرقة منافيًا يعدّ بعيدًا عن واجب الرقة لحدود الظرافة فقال في نفسه

— هذا يوم نحس قضي عليَّ به بان اتغذى هنا بالرغم

عن اني فصبرًا لعلي اجد بعد الغذاء حيلة تنيلني ما اشتهي فادعي بانحراف ... وانسحب على حين غفلة فيغضب الميرالاي خالي ويسخط ولا ابالي به ... ولكن ماذا تقول مدام دي فونبل عني ... لا غرو انها تحكم بوحشيّ خلقي وقلة حيائي ونقص تهذيبي ... ويسوءني وايم الله ان تظن الحسناء بي مثل هذا الظن السيء ... غير ان سوسانتي في انتظاري وليس لها ما تاكل سوى بقايا ديكنا الذي آكلناه ليلة الامس ولم يبقَ منهُ الاَّ عظامهُ ... نعم ان سوسانيت تحبني ومن كان صادقًا في حبهِ يتغذَّ بالتذكر والآمال اولاً على ان ذلك لا يجب ان يدعوني الى اهمالها

وبينما كان غوستاف سائرًا في بعض ماشي الحديقة مسترسلًا الى عوامل مقلق افكاره ابصر مدام دي فونبلّ وحيدة فدنا منها متسرعًا على امل نهب الوقت بمحادثة الفاتنة الحسناء التي رقّ الميرالاي في وصفها فتلطف في اظهار عظيم ذكائهِ وكبير لطفهِ ودهائهِ واجتهد في ان يترك لها حلو تذكار يشفع بهِ لديها عند ما ينجز عزمهُ بالخروج من البيت على حين غفلة فلا تعود تسيء الظن به ولا تجرح عزة نفسهِ

وكانت ابنة الموسيو دي جرانسبير فوق ما وصفها خال

غوستاف تملت بتمام كمال وعظيم جمال واحرزت صفات حسن ودلال وما سلمت من بعض كبرياء كانت زينة محاسنها فاوضح العفريت لها كبير سروره بشرف التعرف بها وقال انهُ سيحسب نفسه من اسعد السعداء لو اجازت لهُ نعمة زيارتها والتمتع بلطيف مسامرتها فاجابت الحسناء بما شف عن كبير رضائها ووسعت الوعد لهُ ليأتي في باريس والخلاء على الرحب والسعة وقابلت عظيم احترامه ومديحه بابتسامه رقيقة سحرت لبه وما قبلت رجاءه في التماس اذن الانصراف بعد الغذاء قائلةً

ـــ لا اسمح بذا ياسيدي ابدًا ولو انك تتأخر ببقائك هنا عن القيام بوعدك والتمتع بما ربما ينتظرك فيهِ من كبير السرور انما انا ارجوك ان تضحي ذلك من اجلي فاحفظ لك جميلاً لا ينتسى

فبمَ تجيب سيدةً حسناء ترجوك بلطفٍ ورقةٍ وقد صرت تشعر من نحوها . . .

وربما يستغرب القاريءُ ذلك قائلاً لعلَّ غوستاف اصبح يهوى الحسناء مغرمًا . . . اي والله نعم فان للعفريت غوستاف قلبًا سريع الاشتعال ولمدام دي فونبل محاسن تصطاد القلوب باشراك لطفها الا قلب من كان حجرًا من

الصخر جلمداً ... ولكن ماذا جرى على سوسانيت المسكينة التي هجرت من اجلهِ الديار وساكنيها وسلمت لهُ بكل نفيس عندها ... هوّن عليك انهُ ما زال يحبها ولن ينسَ جيوليا ويضحك على ليزيت ايضاً ولا يجب ان ندعوه من اجل ذلك غريب الطبع والمثال فكل الرجال في ذلك متشابهون ولا اختلاف بينهم الا بالاقلال والاكثار فلم اسد في تلك العصور الخاوية التي ما كان يعشق الشبان فيها الا حسناء واحدة على فرض وجود مثل ذلك فيها فلقد نجحنا اليوم في الظرافة نجاحاً عظيماً وغدونا نحب الجنس الجميل « على الاطلاق » فانما خُلق الفرنسويون ليعشقوا غير مبالين بشعراء البلاد النمسوية الذين يخطرون في البراري مع موضوع حبهم متنهدين متأملين السكينة معظمين قدر الوحدة قائلين « لله ما اجمل الندى تراه متساقطاً على « اوراق الخريف الاخيرة يحركها الهواء البليل الساري « بين الياف الاشجار حاملاً جارح تنهدات اهل الغرام « صادرةً عن افئدة كواها الجوى فيلقيها في اذن المغرم « الهائم المتامل في قمر السماء الباسط على وجه البسيطة اشعتهُ « الحلوة النجعة المنعشة ارواح من يراها المحيية موات القلوب « الداعية الباب اهل الغرام الى طويل الافتكار بها »

فلندعهم في تيار تأملاتهم عامهين ولندع الانكليز يجزّون الرقاب ويتخاصمون مع مالكات قلوبهم ويهدونهنّ دخان (الشبق) علامة للحب والرضى ولندع الاتراك يحجرون على وجوه الحسان تحت حراسة خصيان منافقين يقدمون لهنّ الخنجر او غيره والاسبان يضون الامر سدًى في نقر آلات الطرب وإيلام الولائم وما يفلحون والروسيين يسوقون المعشوقات بالعصي كالانعام والسكوسيين يبيعون في سوق الحراج نساءهم والهنديين يتزوجون طفلةً ما بلغت العشر سنين والعربيات ينقشن الوجه ويعرين الاكتاف والماليزيين يجزّون الانوف ويسحبون الآذان تحسينًا لخلقهم والايطاليين يحجمون عن عشق المخدرات اكرامًا لطهرهنّ واجلالاً ويسعون وراء المتهتكات فضلة الغرباء الزائرين

ولندع ... بل قُل لي دعنا من كل ذلك وعُد بنا الى غوستاف الذي رأيناه بجانب مدام دي فونبل لنعلم ما يعمل الان عندها ... فانهُ قدم لها ذراعه فرًّا مع الجماعة كلها الى بقعة مخضرة نصبت مائدة الاكل فيها فحكمت الصدفة او الغرض المقصود بان يجلس الفتى العفريت بجانب اوجينيا الحسناء فانشرح صدره ولم يبرّ الغذاء طويلاً رغمًا عن امتداده الى ما بعد الساعة الثالثة ثم خيم الظلام فدخل

الجميع الى القاعة فنظر غوستاف الى ساعةٍ على الحائط معلقة وصاح ويلاه . . . الساعة ثمانية ما عدا الوقت اللازم للوصول الى باريس وسوسانيت المسكينة مستسلمة في سجنها لعوامل اليأس والاحزان فلا بد من السفر العاجل واتجه نحو الباب فرأى اوجينيا وراءه تنظر اليهِ برفقٍ ودنت منهُ فاخذت بيده وقادته الى البيانو قائلةً

— علمتُ انك رقيق الصوت حنون الغناء مولعٌ بهوى الموسيقى فتعالَ معي نغنِّ دورًا رقيقًا لطيفًا

فلم يرَ لرفض سؤالها سبيلاً وانقاد الى ما ارادت فسار الى البيانو معها وغني الدور المقصود ثم محاورة اخرى وبعدها موالاً فارتفعت اصوات الاستحسان من كل مكان وظهر الرضاء على وجه الميرالاي فاستنار بهجةً وسرورًا وغرقت مدام دي فونبلـ في بحر شكر غوستاف ولمعت عيناهـا الساحرتان باشعة الرضاء والاستحسان فمن رآهما تمنَّ لو قضى العمر في تأملها سعيدًا غير ان الساعة دقت عشرة فقـام غوستاف فجأةً يقول في نفسهِ

— نحن في الساعة العاشرة وهي منذ الصباح في انتظاري فياويح قلبي ما اقساه وجرى الى الباب فخرج ونزل الى الحوش فرأى الجواد في الاصطبل باقيًا فاخذه وشكمه بلجام

رآه امامه وامتطاهُ بدون سرج ولا ركاب وطار نحو باريس فوصلها في اقل من ثلاثة ارباع الساعة ودنا من دار خالهِ فوقع الحصان امام نافذة البواب فصرخ المسكين صوتًا مريعًا ووثب ابنهُ مبروك وثبةً عظيمةً

وما أُصيب غوستاف في سقطتهِ باذًى بل تخلص من الحصان تاركًا اياهُ للخدم وساق مبروكًا نحو خزنة الاكل فسار امامهُ متنهدًا قائلا

— وارحماه للحصان المسكين فلا تُرجى لهُ بعد الآن حياة . . .

فقال غوستاف — ائتني يا مبروك بصحن فطير وديك وخمر وبعض حلويات

— صحن فطير . . .

— رُح يا بليد مسرعًا والاَّ قتلتك

فتحيَّر الخادم من عظيم شهية سيده واسرع الى خزنة المأكول فاخذ منها ديكًا وضعهُ في صحن متأنيًا وكان غوستاف على الباب بانتظاره فقال لهُ

— ألم تأتِ يا بليد بغيرِه

— لا بل اجيءُ كل مرةٍ بصحن حذرًا من كسرها كلها

— ويلاه من بلادتك فلا بد لي من اسعافك

ثم اخذ الديك منهُ فوضعهُ على عتبة السلم ونزل الخزنة معهُ فأخذ كل ما وجد من معجنات وخمر وبقول وفاكهة حمَّل مبروكاً بعضها وحمل هو البعض الاخر فاندهش الخادم وقال

— لعلك جائعٌ جدًّا

— ذلك امرٌ لا يعنيك فأجرِ والاَّ . . .

— لا تستعجلني لئلا اكسر شيئاً

وفيما هما صاعدان على السلم ابصرا كلباً يحمل بين اسنانه ديكاً فعرفا كلب الميرالاي خطف الديك من الصحن المهمل من غوستاف امام الباب فغضب صاحبنا وضرب الارض برجليهِ وصاح على الكلب بحزن فخاف الحيوان المسكين وجرى الى مبروك يلتمس بين رجليهِ ملجأً فوقع الخادم على السلم وتلوث بالقشطه السائحة وجههُ

فبلغ الغيظ من غوستاف مبلغاً عظيماً وتحير فلم يدرِ ما يعمل حتى رأى وجوب ترك الديك ومبروك البليد ودخل الحجرة الاولى يحمل الفطير وبعض اثمار ثم قفل باب المدخل وسحب الشنكل وراءه وسار الى غرفة النوم حيث كانت سوسانيت تتقلى في انتظاره على جمر الغضاء

فرأى الفتاة الفلاحة جالسة بقرب المضجع تمسح بالمنديل

عينيها المحمرتين الوارمتين من غزير ذرف محرق دمعها وهي لما رأت غوستاف صاحت فرحةً فجرى اليها يعانقها ويقول لها

— هنذا سوسانيت هنذا

— آه . . . فلقد ظننتك لا تعود

— وعساك يا روحي بكيت

— نعم بكيت النهار كله . . . وانما اؤكد لك بانني ما انيت بادنى حركة

— مسكينة وما اكلتِ

— اكل . . . لا فلم تعد لي على الاكل قابلية . . . فلقد جعت في ذا الصباح وانقطعت الان شهيتي

— وهل وهمت انني سلوت حبك

— نعم ظننت لانك اهملتني وما عدت رأيتني وقد مضى على خروجك وقت طويل

— ما كان الذنب يا راحة الروح ذنبي فلقد تبعت الخال منقاداً الى ظالم امره وآه لو تعلمين كم طالت الساعات عليّ

ولا ريب في ان غوستاف لم يصدق الفتاة تماماً وانما يأتي على الانسان وقت يرى الكذب فيه حلالاً لانه لو قال لسوسانيت « رأيت امرأة جميلة نسيت بلطيف محادثتها وفني وحبي » لكان ذا قساوة بربرية ولو ان الحقيقة ما

قال وفي ذلك دليل على انهُ لا يليق حكاية كل الحقائق

ثم اعد غوستاف المائدة نوضع الفطير والخمر والثمر عليها وسحبها الى جانب سوسانيت ودنا منها منكسرًا يسألها بلطف ان تاكل فابتسمت المسكينة لهُ فرحةً اذ علمت من حار التماسانهِ انهُ ما زال مولعًا بها فنسيت اوجاع النهار كلها واكلت ارضاء لغوستاف حبيبها

وبينما كانت تأكل متأنيةً كان الفتى يتأمل حاله قائلاً «لا بدع ان توالت النحوس في مقبل الايام بمثل ما جرى اليوم علينا فلا نأمن عاقبةً وخيمة ولا يصح ان ادع سوسانيت في حجرةٍ ضيقة تقضي فيها حياتها بدون كلام ولا حركة حذرًا من ان تسمع فضلا عن ان بالحجر عليها تصاب بامراض تعرض المسكينة الى خطر مبين اذ يستحيل سرعة تغيير حال المعيشة فالطفرة محال وان فتاة تعودت على الهيام في الحقول والاستيقاظ مع يقظة الشمس لا تستطيع البقاء بدون تغيير الهواء وعدم فتح الشبابيك حذرًا من ان يراها اهل البيت فضلاً عن ان قلة عقل مبروك ربما ولدت عن حالتي ظنونًا فيتصل الخبر الى اذان خالي والويل لي ان وجد الفتاة في حجرتي فلا بد اذًا من ابعادها وعدم ابقائها في هذا البيت بل استأجر لها حجرة احضر لها اثاثًا وافرشها فتظافر حينئذٍ

بجريتها وتغني كيف شاءت وتتكلم متى ارادت وتاكل في اي وقت تريد وتستنشق الهواء النقيّ كلما راق لها واذهب انا عندها صباح كل يوم ومسائه فاراها وتراني ويهنأ البال منا فنصبح سعيدين »

وبعد ان دبر ذلك في افكاره قال للفتاة

ــ اهتديت يا حبيبتي الى وسيلة تتمكن بها من نعمة اجتماعنا من غير خطر علينا ففي الغد استأجر لك حجرة جميلة في اعظم الشوارع تقيمين بها لا خوف ولا حيطة

فما سمعت سوسانيت ذلك حتى القت الكأس والشوكة من يدها وجعلت تصغي لغوستاف الذي اخذ يشرح لها عما ستلاقيه من عظيم السرور في المسكن الجديد ولما انتهى من حديثه ظلت المسكينة صامتة يتدفق الدمع من عينيها ثم سجدت على رجليه باكيةً راجية مسترحمة ناظرة له نظرات تجرح الفؤاد

فاندهش المحب من فعلها وسألها الافصاح عما نابها ثم ضمها بذراعيه لينهضها عن الارض فابت وبقيت ساجدةً تبل الثرى بجاري دمعها وتقول لغوستاف صائحةً متنهدة

ــ رحماك يا حبيبي غوستاف رحماك فلا تقصني عنك وكن من جهتي آمنًا فاني اعدك بألاَّ اسبب لك عناء فلا اكل

الاّ ما تيسر ولا آتي بحركة وانقطع عن البكاء... وانت حرّ تخرج حينما تريد وتعود عندما يروق لك وانما ارجوك ان لا تطردني من عندك...

ــ وهمت يا راح روحي فانا لا اطردك ...وانما اود لك في العيش رغداً فلا تضطرين الى التحرز وتخرجين معي متى اردتِ

ــ لا بل افضل البقاء في حجرتك

ــ وسآتي كل يوم لاراك

ــ لالافاخشى ان تروح ولا تعود بعكس هنا فلا بد من رجوعك الى سريرك

ــ واذا اكتشف خالي علينا

ــ ألا ماانتظرت ... وانت حينئذٍ مخير في ان ترسلني ايان شئت واما في باريس فلا رجاء بالحياة لي الا بقربك

فلم يتمكن غوستاف من تسكين جاش الفتاة الا بوعد بقائها في حجرته قائلاً

ــ انتِ اردتِ ذلك ـ فابقي على الرحب والسعة وعسى ان لانصاب بما يجعلنا نقرع سن الندم

فاعاد ذلك الوعد لموسانيت فاقد سرورها وقامت الى غوستاف تعانقه وتقبله وتشكره ثم جعلت تجري في الغرفة وتنط وتقول الف لطيفة متيقنةً بتمام سعادتها غير ان

غوستاف ما كان في ذلك من رأيها الا انهُ ما اراد تعكير صافي مسرتها ونام بين ذراعيها حزينًا كئيبًا متأملاً وربما كانت هذه هي المرة الاولى التي ظفر العقل على الحب بها

*

*

٤

الحجرة السرية

ولم تجيء الساعة الثامنة من صباح الغد حتى جاء مبروك يقرع باب غرفة سيده فقام غوستاف من سريره وسأله عما يريد فاجاب

— ان مولاي الميرالاي يدعوك

فوجم غوستاف متوهمًا انه سينال ملامًا كبيرًا ثم لبس واقفل باب الحجرة على حبيبته وذهب عند خاله فاستاء الخادم اذ رأى سيده يقفل كالامس باب الحجرة غير انه ما تجرأ على ابداء ادنى ملاحظة

ومذ دخل غوستاف على خاله قال هذا له

— بماذا دهيت يا مسيو واي شيطان غواية وسوس مساء

الامس في رأسك حتى خرجت من دارٍ قوبلت فيها بكل اكرام ولطفٍ وهربت بدون القيام بما عليك من واجب الضيافة لربة المنزل التي تركتها وحدها بينما كانت تنتظر منك ان تغني معها دورًا اخر . . . فسافرت مسرعًا كأن الشيطان راكب على ظهرك . . . وامتطيت حصانًا ما تعوّد على السرج ابدًا لانهُ حصان عربيٌ غالٍ عزيز دفعت اربعين جنيهًا لهُ ثمنًا فقتلت ذلك الحيوان المسكين حبًا بالوصول الى الاوبرا لتتبع اهواء سوء مسيرك فجئت الحوش وسقطت فيهِ كأنك قنبلة مدفع فكسرت زجاج غرفة البواب والقيت الرعب في قلوب الجميع واخرجت البواب من عقلهِ بعد ان كان نصف معتوه أ فكان يجب ان تأتي بمثل هذه السرعة لتجري الى خزانة الاكل وتأكل ديكًا وصحن فطير . . . وتنهب خزانة الثمر والحلويات فلست لا والله افهم قصدك حالة كونك تغذيت جيدًا

— جعت في اثناء سيري يا سيدي

— الدار دارك فكل ما تريد وانما لا تجعل جوعك سببًا لان تقتل خيلي وتخرب داري

— ولعل مدام دي فونبل تأثرت من غيابي

— لا فهي ملاك الصلاح . . . فلقد كانت اول من

سكّن سورة غضبي ... وانما يجب عليك ان تسألها على ذلك عفوًا

— انا ذاهبٌ في الحال اليها

— واضطر انا لمشترى حصان جديد ولا انكر عليك انني ظننت اولاً ان لا بد من انك تكون ضاربًا مع احدى النساء ميعادًا فزرعتني هناك لتأتي الى خليعةٍ تخلّي بها فلذا كان اندهاشي حين وصلت باريس عظيمًا اذ سمعت بانك ما جربت لهنا الاّ واقع البطن مبردًا للغداء ... فيالله من شهيتك فهي من ظريف مبالغة الشعراء وأُشير عليك ان تضع في جيبك بعد الان بعض المآكل لئلا تقتل بسبب جوعك خيلي

ثم ترك غوستاف خاله وعاد الى حجرته فصادف المبروك واتحفه بلطمةٍ تعلمه حفظ الاسرار وعدم نقل الاخبار الى خالهِ فجعل الخادم يبكي مقسمًا بان الذنب ذنب الكلب الذي راح يحرّك امام الميرالاي ذنبه حاملاً في فيهِ قطعةً من ديك الامس الذي خطفهُ من على السلم

ودخل غوستاف الى حجرتهِ فقبل ثغر حبيبتهِ ونزل الشارع فركب عربةً وسار الى دار الموسيو دي جرانسيير فقابل اوجينيا وسألها عن سفره الفجائي عفوًا فقابلت عذره

بالعفو والمغفرة غير انها ارادت ان تباسطه على وعده الذي دعاه الى الاتيان بما اتى فبان لغوستاف انها مستأة في الباطن ففرح في سره علماً بان استياءها دليل اهتمامها • ولم يطل عندها زيارته رغماً عن عظيم سرور فؤاده بمحادثتها ثم عاد الى الدار قبل حلول الساعة الرابعة

واسرع الى سوسانيت فما تركها بقية النهار وامر باحضار ما يلزم لغذائها فأتي بذلك الى الفسحة ولقد اثرت المتائل في مرروك فما عاد يجسر على الكلام لا ولا على المجيء الى فسحة حجرة مولاه

وقد اتى عليها في تلك الحال حين من الدهر ما كان يخرج غوستاف فيه الاَّ لزيارة مدام دي فونبل التي عادت مع ابيها الى باريس لسبب انقضاء اجل القيامة في الخلاء وما عدا تلك الزيارات ما كان غوستاف ليترك سوسانيت ابدًا ولا يخرج من الحجرة الا للفطور والغذاء مع خالهِ عندما يكون الميرالاي غائبًا

ولقد تعجب الميرالاي من معيشة غوستاف المرتبة حتى صار يخاصمهُ على مزيد اهتمامه في الاشغال قائلاً له

ــ لا يصح الانتقال يا حبيبي من درجة الى اخرى دفعة واحدة فلقد كنت فيما سلف خفيفًا تأتي بالف طياشةٍ ولا

تقيم في البيت الا نادرًا وتحبس الآن في الحجرة نفسك لا تتحرك منها ابدًا . . . وانا اخشى ان ينالك بسبب الشغل الكثير مصيبة ما والدليل على صدق خوفي انك اصبحت رغمًا عن تعقلك وانفرادك وحسن سيرك مصفر الوجه نحيلًا غائر العينين كأنك تمضي لياليك في المراقص والملاهي كلها . . .

— ألا ان درسي في الدجى متعب جسمي

— لله من عقلك ومن ذا الذي يدعوك الى الدرس الكثير بل انا امرك واعيد عليك بان لا تنقاد الى الدرس كثيرًا فتعالَ الى الجمعيات معي ولا تحبس في الحجرة نفسك منكبًا على اوراق مطبوعة

ولا غرو فان للدهر اقتدارًا يفوق قدرة المير الاديب لان غوستاف كان لسوسانيت معلمًا استاذًا ينهب لي تعليمها الساعات التي لا يمكن تمضيتها بمشاغل الحب والهوى بحسبما يرغب النساء فكان يعلمها القرأة والكتابة اذ ما كانت تعلمت الا بعض مسائل حضرتها على معلم الكتاب في ارمونفيل الذي لم يكن ارسطو زمانه وكانت الفتاة تنصب على الدرس متمسكة تمضي فيه كل الوقت الذي يتركها غوستاف وحيدة بقصد ارضاء محبها ولقد ثقل حمل هاته الوحدة على غوستاف فطالت ايامها وما كانت سوسانيت

الداعية اليها بل ما اصبحت اقل افتتاناً من ذي قبل ولا ادنى حلاوة ولا اضعف حباً وانما كان غوستاف يراها حيناً بريد وفي الليل يلاقيها فكان مفعم القلب حباً ودلالاً يلاحظ عندما يكون معها ساعة ويستنبط للابتعاد عنها حيلاً فيذهب الى مدام دي فونبل ويرى الوقت يمر معها بسرعة رغماً عن انها ما كانت تسمع تبجيلاته الا متهكمة هازلة تضحك حين يتنفس الصعداء وتسكت حين يكاشفها بحاسات قلبه وتهزأ به عندما تراه فاكراً . انما لحظ غوستاف في عرض ذلك دلائل ميل وحنو كانت تجتهد في اخفائها عن انظاره وان كانت لا تخفى على عاشق واهٍ

وما كانت سوسانيت تعاتب غوستاف على متواتر غيابه بل تتنهد حين خروجه وتبكي حالما يطيل غيابه ولكن متى سمعت في الفسحة صوت خطاه تسرع في تجفيف عينيها وتنشيف دمعها وتأتي لمقابلته بوجه باسم حلو

وكان الميرالاي على علم بان ابن اخته يذهب في غالب الاحيان الى دار المسيو دي جرانسيير مبتهجاً بنمو حب غوستاف لاوجينيا الحسناء متيقناً بان سرّ تغير اخلاق ابن اخته ان هو الا اشتغاله بهذا الحب الجديد فسعى الى صديقه يفاتحه بآماله فقال المسيو دي جرانسيير ان ابنة صاحبة

الامر المطلق فيما يتعلق بحريتها ويمكنها متى شاءت ان تتزوج بمن ارادت فقال الميرالاي في نفسهِ « لا غرو ان صحت الاحوال على ما اريد ما دامها سارية على ذا المنوال فلقد اعجب غوستاف اوجينيا حقيقةً لتكملهِ بكل ما يجعل الشاب ظريفًا فلا مناص لها عن زواجه لانها طاهرة كاملة يمتنع ان تسلم اليهِ قبل الزواج نفسها ويستحيل عليها ابقاءه في مركز ضنك تقاوم اميال فوأد يدعوها الى اتمام ما طال رفضهُ على غير طائل

ولقد انقادت سوسانيت الى رأي غوستاف فكتبت لوالديها كتابًا طويلاً ابانت لها فيهِ عظيم ندمها على ما فرط منها مما اوجب الاحزان لها وجعلت سبب زلتها شدة نفورها من نقولا الذي كان يريد زواجها وقالت لها انها في باريس مقيمة وانما تحرزت من ان تعلمها عن عنوانها ومحل سكناها لئلا يجاورباها ويأتيا فيفصلاها عن ذاك الذي لا تستطيع على فرقتهِ صبرًا

ثم بينما كان الميرالاي يتمشى في صبيحة احد الايام في حوش الدار على غير عادة ليرى حصانًا جديدًا خال لهُ انهُ يسمع لفظ اسم ابن اختهِ من ناحية مخزن العربة فدنا من الحائط ووقف في جانب لا يرى منهُ فسمع الحديث الآتي

جرى بين مبروك وابيهِ الذي كان يغسل عربة الميرالاي قائلاً

ـ فتقول اذاً يا والدي ان الموسيو غوستاف لا يريد ان يدخل حجرته احدٌ

ـ قسماً بك يا والدي ...فهو لا يريد ابداً ...وقد حظر الدخول عليّ حتماً

ـ ومن ذا يصلح سريره ويرتب حجرته

ـ لست ادري ... فانما قال لي انهُ ابتاع يمامتين يتسلى بتربيتهما ... ويظل طول النهار لاهياً معهما بينما يظنهُ الميرالاي بالدرس مهتماً

ـ عجباً ... أبرئي من كان في سنهِ يماماً ... نعسى ان تكون اذاً تلك الخيالات التي اراها من خلال الزجاج اذ يكون غائباً

ـ لا ريب ... وانما يجب القول بان هاته الحيوانات تاكل مثلنا وتشرب خمراً لان الموسيو غوستاف يستهلك نبيذاً كثيراً ويطلب فطيراً ودبوكاً وحلوى واثماراً

ـ فلعلهُ يربي يامبروك قرداً يقدمه للميرالاي يوم عيده السنوي هديةً ...

ـ وهذا محتمل ايضاً .. نعم اصبت فلعلهم قرود ولقد ظننتهم في احد الايام لصوصاً ..اذ ما كان اليمام ليأتي

بحركة مثل التي سمعتها فانا اذوب شوقًا لمعرفة حقيقة ما يكونوا

ــ وانا اموت رغبةً . . .

فقال الميرالاي في نفسهِ وقد ابتعد عنهما «سأعلم ذلك انا . . . فيا عجبي من قرودٍ تأكل ديوكًا وتشرب خمرًا فلا بد من ان يكون في الامر سرٌّ . . . ومَ اقول عن انعكاف غوستاف على الدرس بعكس عادتهِ . . . فلعلني خُدعتُ ايضًا . . . فما ينقصني والله الاّ ذلك ايضًا . . .

وكان الميرالاي فعّالاً لا يستطيع الصبر على امر يولد لهُ الف ريبٍ فصعد في الحال الى حجرة غوستاف ورام الدخول فشام الباب مغلوقًا فقال «ان الامر لعلى صحةٍ وما كذب المبروك فيما ادعى . . . فسوف ارى . . . نعم فلسوف ارى ماذا يريد ان يخفي عن العيون» ونزل الى الحوش يسأل خادم ابن اختهِ قائلاً

ــ ابن مولاك

ــ لقد خرج

ــ واين مفتاح حجرتهِ فلي فيها حاجةٌ

ــ لا مفتاح معي يا سيدي ولا . . .

قال مبروك ذلك واحمرّ جزعًا فقال الميرالاي لهُ

ــ هوّن عليك فانا على علم بان لا دخل لك في شيطنة ابن اختي فهو يعلم عظيم غباوتك ولا يركن اليك باسراره

ــ قلت يا سيدي حقًا

ــ فأتني بكماشةٍ وقدوم

ــ ان شئت فلنناد حدادًا . . .

ــ لا فلا لزوم للحداد بل هاتِ ما امرتك به واسكت

فأتى المبروك للمير الاي بما طلب ونبعه الى حجرة غوستاف حتى وصلا الفسحة الاولى فأمر المير الاي برجوع الخادم فاطاع الامر غير مختار اذ كان يذوب رغبةً في روئية ما خباه مولاه

وربما كان المير الاي ادرى بخلع باب عنوةً من معالجة خلع قفل غير انهُ تأنى في فعلهِ حتى تيسر لهُ سحب مسامير القفل . . . فصار في الحجرة السرية يقلب فيها طرفه عبثًا اذ لم يرَ دامًا ولا قرودًا وانما ابصر على السرير ملابس يستحيل ان تكون لغوستاف فصاح

ــ يا للداهية . . . فهنا توجد امرأة . . . فمن اي جهنم طلعت . . .

قال ذلك ووقع نظره على جانب الشباك حيث كانت

سوسانيت مختفية وراء كراسٍ مرصوصة فرآها المير الاسب
ووقف ازاءها جامداً لا يستطيع حراكاً ثم تجلد حتى وجد الى الكلام سبيلاً فقال لها

— ايّ داهيةٍ تعملين هنا يا بنتي . . .

فاطبقت سوسانيت عينيها وما تحركت ندنا منها وابعد الكرسي عنها واخذها من يدها وهي تضطرب كورقةٍ حركها الهواء فقال

— تشجعي ولا تخفي . . . فانا لا اريد ابتلاعك فجاوبيني على ما اسألكِ وقولي الحقيقة

— امرك يا مولاي

— ماذا تعملين في حجرة ابن اخي

— اعيش ياسيدي معهُ

— كيف تعيشين معهُ . . . وليس في هذه الحجرة سوى سرير واحد

— ننام معًا . . .

— الله الله وكم مضى عليكِ هنا

— ستة اسابيع يا سيدي

— انت في هاته الحجرة من منذ ستة اسابيع ولا تخرجين ابداً . . .

— لا يا سيدي ابداً اذ ان خوفي من ان أرى كان عظيماً

— وم تعملين طول نهارك

— ارنو الى غوستاف حين يكون هنا واحادثه واعانقه . . . وأتمرن على القرأة والكتابة كلما وجدتُ وحدي

فانت اذًا في معظم الوقت وحيدة اذ تواتر في هذه الايام خروجه وغيابه فألا تسأمين مثل هاته المعيشة

لا يا سيدي اذ افكر دائمًا به متأكدة بقريب عوده

فجعل المير الاي يتأمل سوسانيت متفكرًا وقد سكن غضبه بسطوة سلطان محاسنها وسذاجتها ثم عاودها السؤال بعد برهة تأمل قائلاً

— واين عرفت ابن اختي

— في ارمنونفيل يا سيدي حيث نام في دارنا

— و بلاه . . . انه نزل على والديك ضيفًا وانتشل ابنتها مكافأة لها

— لا يا سيدي فانه لم يسلبني ولم ينتشلني بل حصل الامر على غير قصد . . . فلقد دفعتني التقادير الى حجرته وهمنا في الحال وجدًا . . .

— وهمنا في الحال معًا . . .

— نعم يا سيدي

— ارى ان قد يحصل في أرمونفيل ما يجري في باريس ايضًا ولكن لماذا تركت الاهل والبلد

— اواَهُ يا سيدي . . . انهم كانوا ينوون اجباري على زواج تقولا نو بت الذي لا احبه ابدًا والذي كنت اصبح بالحياة معهُ تعيسة . . . ثم كنت افكر بالمسيو غوستاف دائمًا واموت لبعده الماً وغماً

— وألا تشفقين على امك ان تموت بداعي هجرك اياها فتقودها زلتك الى التربة

— رحماك يامولاي . . . فلا تذكرني بمثل ذلك

وجعلت المسكينة تبكي فاثر بكاؤها في نفس الميرالاي تاثيرًا عظيماً فجعل يتمشى في الحجرة حائرًا ناظرًا الى الفتاة لاعنًا ابن اخته ثم عاد اليها وامسك يدها قائلا لها

— سكني الآن يا بنتي روعك واسمعي كلامي ولا تبكي فليس من قصدي ان اوجه اليك على زلتك ملامًا لانك لم تشعري من نفسك بعدم لياقتها فقد اصغيت الى نداء القلب . . . الذي وان قيل بوجوب اتخاذه مرشد اعمالنا الاَّ ان قلبك دلك على سبيل الهوى . . . ويستحيل بعد الآن بقاؤك في هاته الحجرة فكفى ما اقمت بهِ شهرًا أو نصفًا فاسكتي . . .

ولا تبكي والآ حرقت الادمع غيظاً … أ ترحلين عن هذه الدار اذاً …

ـ ناشدتك الله يا مولاي … فالا ما اتخذتني في بيتك خادمة … اخدمك واشتغل

ـ لا والله ابداً … فان خادمة مثلك تقلب اوضاع داري … بل هل تظنين غرستاف يرضى بان يراك بين الخدم الآخرين . لا يا بنتي لا فلا بد من خروجك من هنا فما لك غير ذلك من سبيل … أ تريدين البقاء في باريس او الرجوع الى دارك بين اهلك

ـ اشفق يا سيدي على ضعفي ولا تعدني الى القرية لئلا يقتصوا مني فيزوجوني لنقولا

ـ عجباً كيف تكرهين هذا الرجل … ولو كنت مثل نساء باريس (١) لما حال زواج مثلهِ دون اهوائك و … بل فلنصمت الآن عن ذلك … فقد رضيت بان لا ترجعي الى القرية على شرط ان اضعك في احد المحلات المعتبرة وان تعلمي امك عن محل وجودك ولكنّ الحيرة في اختيار الموضع …

ـ ضعني يا سيدي اين شئت فذلك لا يهمني … بل ارى الدنيا بالبعد عنه سواء ولا سعادة لي اياً كنت

١ بل نساء كثير من بلاد الله الواسعة …………

ـ هذه احاديث قالتها كل البنات من قبلك . . . فان الحب يا بنتي سريع الزوال ولو كنت ذات خبرة لعلمت بان حب غوستاف انما امسي . . . والحب لا يأتي على كل حال الانسان بأودهِ فالواجب ان تنظري في مستقبلك لأن ابن اختي فتى طائش وربما كان يبقيك في حجرته محبوسة كل ايام صباك بينما هو . . . آه يا بنتي ان الرجال لا يستخفون الدموع التي تسكبين من اجلهم

وكان الميرالاي حائرًا يفكر فيما يجب ان يعمل بسوسانيت التي لا يمكنهُ ابقاؤها في داره رغمًا عن عزمهِ على الاخذ بناصرها اذ لحظ ان هاته الفتاة الفلاحة المسكينة كانت رغمًا عن وجودها في غرفة شاب عزب اقل خبرة واسذج من كثيرات من الفتيات اللاتي ما زلن متعلقات باذيال امهاتهنّ . . . ولقد حل السكوت على سوسانيت فلم تفه بكلمة وانما جعلت تنظر الى الموسيو مورنفال خائفة منتظرة صارم قضائهِ على منحوس حظها . . . ثم تركها وفتح باب الفسحة لينادي مبروكًا . . . فلم يتعب بذلك نفسهُ اذ رأى البواب وابنهُ مستمرين على السلم نفسيهما منتظرين خروجه من الحجرة حاملاً الشيء السرّي الذي خباه مولاها غوستاف وهما يذوبان الى رؤيتهِ شوقًا

فنظر الميرالاي الى الخادمين بصرامةٍ فادحة وصاح بهما

— ويكما فماذا تعملان هنا

فتغمغا ثم رفع البواب قبعته اجلالاً وقال

— انما نحن في انتظار اوامر مولانا

— كذبتَ بل قل انكما انما تنتظران خروجي من هاته الحجرة لتدخلا انتما وتريا القرد الذي تركهُ ابن اختي . . .

— فهو اذاً يا سيدي قردٌ

— اذهبا الى غرفتكما فانا لا اطيق كل من يكون طلعًا

قال الميرالاي ذلك وضرب البواب على ظهره فمثر بابنهِ وتدحرجا مستاءَين من اكتشافهِ على سر مرامهما متكدرين من عدم تمكنهما من رؤية الشيء الخفي

فسار الموسيو دي مورنفال الى مدام دونفال مسرعًا وهي امرأةٌ طاعنة في السن تكوي بياضات بيته وتسكن حجرة في الدار صغيرة ولم تكن طلعةً ولا ثرثارة وقد مضى عليها في خدمة الميرالاي اثنى عشر عامًا فلما دخل حجرتها قال لها

— اود ان اضع يا مدام دونفال في احد المخازن فتاة يهمني امرها جدًا فارشديني الى مخزنٍ ليس فيهِ ما يضطر هاته الفتاة المسكينة الى السعي في شوارع باريس دائمًا وسماع كلام غلاظ المشترين

فجعلت مدام دوفال تتامل برهة ثم قالت

ــ لا اعرف يا سيدي الاَّ مدام هنري وهي خردجية لها في شارع «دزورس» مخزن كبير نأخذ منهُ ما يلزم لدار سيدي ولقد رجتني والله منذ ايام ان ابحث لها عن فتاة لعلي اجد لها مساعدةً

ــ وهل هي معروفة بالعفة والكمال

ــ نعم سيدي فمدام هنري ارملةٌ صبيةٌ لطيفة الخلق والخُلق تذهب الآحاد الى التياتر وانما هي بالاجمال عفيفة لا تقبل من مثلها وهي السيرة احدًا

ــ هذه طبق ما ابتغي فانا لا اقصد ان احبس هذه الفتاة في دير ولا عند احدى الناسكات المتعبدات وانما اريد لها شغلاً شاغلاً لافكارها مسليًا لها فأتني في الحال بعربةٍ مقفولةٍ واستعدي لمرافقتي عند مدام هنري

ــ وانما يجب ان اعلمها بالامر اولاً

ــ لا لزوم لذلك ما دمت تعرفينها ولا بد من ان تعرفني انا ايضًا ولو بالاسم ما دامت هي التي تقدم لنا ما نحتاجه ففي ذلك غنًى . . . فاسرعي بالله وادخلي العربة في الحوش لتقف بقرب السلم الوسطي

فخرجت مدام دوفال وعاد الميرالاي الى حجرة سوسانيت

يقول لها

— هيا اسرعي يا ابنيه واعلي بما خصك بحجة واستعدي للذهاب معي

— اواهُ . . . ففي نفس هذا اليوم تأخذني

— بل الساعة . . .

— وانما يجمل ان انتظره واودعه

— كلاَّ بل يجب ان تخرجي قبل رجوعه

— ويلاه يا رباه فماذا عساه ان يقول عندما لا يجدني

— تقول لهُ انك خرجت منقادةً لثابت امري

— فيؤثر فيهِ ألم الفراق ويؤذيه . . .

— لا بل يرى الحق فيما فعلت ويستحسنُ ما اجريت . . . وما ينقصني لعمرِ ابي الاَّ اعتراضهُ . . .

فاخذت سوسانيت تركي مستسلمة الى عوامل يأسها مسترحمة نعمة البقاء في انتظار غوستاف فما لان لها ولم يرق لحالها فجعلت تذرف الدمع السخين مخنوقةً بالعبرات ثم قالت للميرالاي حزينة ذليلة

— فجد بالله بوعد ان يأتي حبيبي غوستاف اروتي . . . وان تقول لهُ عن محل وجودي

فلم يشأ الميرالاي قطع كل امالها وقال لها

نعم يا بنتي نعم فلسوف تربنهٔ٠ هذا اذا ندمت على ما فات وعزمت على التوبة وحسن السيرة

فسكّن هذا الوعد بعض آلام سوسانيت المسكينة فنشّفت جاري دمعها وعملت ما كان اشتراه غوستاف لها منذ رجودها عنده بقجةً حملتها ووقفت في اوامر المسيو دي مورفال

ثم دخلت الحوش عربةٌ ووقفت بجانب السلم فاخذ الميرالاي بيد الفتاة فادارت نظرها الحنون نحو الحجرة التي كانت لها عدن الهناء والنعيم فانتفخ صدرها وضعفت ركبتاها وانما حبست دمعها خوفًا من الميرالاي رقيبها وسارا حتى وصلا العربة فادخل الميرالاي الفتاة اولاً وجلس هو بجانبها واجلس مدام دوفال امامها ثم اقفل الزجاج وامر السائق بان يسير الى شارع دزورس فخرجت العربة من القصر طائرة وكان مبروك واوه خارج الدار واقفين تجاه الباب يرنعان رأسيهما ويطوّلان رقبتيهما ليريا ركاب العربة فلم يريا شيئًا ما املا لان سوسانيت كانت مخبأةً وراء مدام دوفال والميرالاي ولم يكسب سوى بعض ضربات سوط السائق

وجرت العربة حتى وصلت مخزن مدام هنري فاندهشت الخردجية اذ رأت الميرالاي دي مورنفال داخلاً عندها مع كولونيتهِ وفتاةٍ محمرّة العينين نقدر ان نقف بالكاد على

رجليها فحياها الميرالاي بالسلام وقال لها

— علمت من مدام دوفال انك سألتها فتاةً مساعدةً فاتيتك انا بها وهي شديدة الحزن كما ترين ولسوف تروي لك عن اسباب احزانها فتبتدئين بتعزيتها وتجتهدين في اقناعها وتمهيد سبل السلو لها والزمان بعد ذلك اكمال ما في واني لأوصيك بها خيرًا فامرها يهمني جدًّا وقد اوليتها بحمايتي وهي قليلة الخبرة ساذجة ستربين في تهذيبها صعوبة فاليك عن السنة الاولى خمسة وعشرين جنيهًا وان رأيتها غير كافية ُزري لا زدْ

فاندهشت الخردجية من تسرُّع الميرالاي واختصاره في قضاء حاجاته وقالت له

— توصيتك يا سيدي وترصية مدام دوفال هما ضمانة كافية لأن اقبل المدموازل عندي اذا رضيت هي بالاقامة

فقالت [illegible] وانيت متنهدة

— نعم سيدتي فانا اعمل كل ما يطلب مني

فقال الميرالاي لمدام هنري

— لقد قُضي الامر اذًا يا سيدتي فاسمحي لي بتكرار التوصية والرجاء بالاعتناء في شأن هاته الفتاة التي لا عيب لها سوى رقة شعورها بالغة حد النحافة

ثم التفت الى سوسانيت وقال

— اسيرُ يا ابنتي مفتكرًا بك مصمماً على المجيء لمشاهدتك وساستنبي من مدام دوفال عن حالك وامك اذا اصبحت راشدة اوسع لك حمايتي وسيعلم والداك في الغد انك مقيمة في محل لا يوجب لك خجلاً

ثم ودعها وسار في حال سبيله تاركًا سوسانيت الفتاة في دار مدام هنري مستسلمةً الى عوامل الاحزان ولندعها الان لنرى ماذا كان غوستاف يعمل حالما كانوا يسلبونها من غرفته

فانهُ كان قضى من النهار قسماً عند مدام دي فونبل وعاد في المساء الى الدار فرأى مبروكًا واباه في حجرته يفتشان لانهما مذ رأيا الميرالاي يقعد في العربة قر الرأي عندهما على ان يصعدا الى حجرة غوستاف ويلاحظ كل شيء قبل عودة مولاها وقد وجدا باب الحجرة السرية مفتوحًا فدخلاها آمنين وفتشا في كل ركن عساهما يعثران على اقل اثر يستدلان منهُ على باطن السر العجيب

فلما وصل غوستاف الى حجرته رأى بابها مفتوحًا فاندهش ووهم انهُ تركه حال خروجه سهوًا فدخل ... ونظر ... فماذا رأى .. رأى بدل الفتاة بواب البيت منهمكًا في التفتيش

ـ اغربا عني قبل ان تنلا جزاء ما تستحقان

فاسرع البواب وابنة في الهرب من امامه فانهما ما كانا يتمنيان غير ذلك فجعل غوستاف يفتش في الحجرة عله يجد من سوسانيت كتابًا فلم يرَ شيئًا فوقف جامدًا حزينًا يفكر في سوسانيت المسلوبة منه ولا يعترضنَّ القارئ على ذلك بالقول انه ما عاد يهمه امرها بدليل ان كان يسأم البقاء معها ويتركها من اجل اوجينيا لان ملاله كان عند ما كانت سوسانيت في داره امينًا على وجودها عنده فاصبح حينذاك لا يشعر بقوة الوجد وحنو الميل اللذين هما خلاصة الحب الصادق فيتركها في قسم من النهار كبير ويخترع حين يعود لها للابتعاد عنها ايضًا حيلاً ... واما الان وقد اصبحت بعيدة عن داره مسلوبة منه احس بتجدد اشتعال نار حبه وذاب شوقًا لرؤيتها ورغبة في محادثتها وميلاً لمعانقتها وتلك احدى غرائب حال قلب الانسان ولا عجب

فكل ممتنع محبوب

في احد الدواليب وابصر مبروكًا ساجدًا بجيل تحت السرير انظاره فصاح الفتى يئسًا

— ما تعملان يا شقيين هنا ومن اين دخلتما ...

فارتعد البواب وابنه ولم يجدا جوابًا ولا عذرًا وظلاّ صامتين فاخذ صاحبنا المبروك من اذنه وسحبها بعنف قائلاً

— اين راحت يا ملعون...

— اين راحت يا سيدي...

— نعم وماذا جرى عليها

— ماذا جرى عليها ... انني لا افهم قصدك فنحن ما رأينا والله يامتيك

فقال البواب مرتعشًا

— وكنا نبحث في الحقيقة عنها

— ومن ذا فتح الباب

— مولانا خالك وانما قد دخل وحده ... ثم انوه بعربةٍ ...

— فاخذها اذًا من هنا

— ذلك يا سيدي محتمل فانما نحن على يقينٍ من انه اخذ من هنا شيئًا غير اننا لم نتمكن من معرفة ما اذا كان فردًا ام زوجًا

*

٥

ليلة زوجية

ولقد عظم اليأس على غوستاف من بعد فقد سوسانيت واضحى شديد الولع بها وزاد البعد نار وجده فخرج من الدار بنية جولان المدينة كلها للاكتشاف على السجن الذي وُضعت الحبيبةُ فيه باذن الخال الجائر الظالم ولا بدع في ان ينسب غوستاف الظلم لخاله لان من عادة الناس اطلاق اسم الجائر على كل من يلقي في سبيل الحب عثرةً ولا بدع الهوى يطيب لاهلهِ

غير ان باريس مدينةٌ كبيرةٌ اذا سار المرء فيها غير قاصدٍ محلاً معيناً ربما يقضي النهار سعياً على الاقدام قبل ان يهتدي الى سبيل وجود من يفتش عليه فسار غوستاف

وما خطا مئة خطوة حتى وقف ينظر الى الفضاء لا يدري في اي السبيل يسير وظلَّ في السكة حائرًا غير منتبهٍ الى تنكيت المارة الذين رأوا امرءً غريبًا لعدم مناسبة وقوفه في وسط الشارع كالتمثال ولو بقي هنالك هنةً اخرى لكان اجتمع الخلقُ عليه ليعلموا سر تأمله السماء فان حب الوقوف على الخفيات يكثر في باريس عن غيرها فهو من اخلاق ساكنيها فلو راوا كلبين يتخاصمانِ او نظروا امرأةً رافعة طرف ثوبها او شاهدوا نملاً يسقط ويقوم او ولدًا يصيح ويزعق لاجتمعوا من حول كلٍ من هؤلاء مئات والوفًا

وما نجا غوستاف من وصمة ذهوله الاّ بقوة صوت لفظ اسمه بصراحةٍ وكان الصوت صادرًا من عربةٍ صفراء تسير الهوينا يجرها حصانان يسيران بقدر ما يسمح لها سائقٌ مؤجر على حساب الساعة فقال غوستاف في نفسهِ

— هذه حبيبتي ... فهي والله في العربة وقد قال مبروك لي انها صفراء ... فان صوتًا يدعوني ... وهو صوتٌ انيس معروف فهذه هي ... هي سوسانيت حبيبتي ... فلا بد من ان اسير وراء العربة ولو كنا في الليل لركبتُ ورأها وانما يستحيل ذلك في النهار عليَّ غير انني لا احولُ عنها نظري ... واظل عن بابها بعيدًا لئلا

براني الميرالاي

وظلت العربة سائرةً حتى خرجت من المدينة واتجهت نحو ربض «التمبل» فقال غوستاف لا شك في انها حبيبتي يأخذونها الى البرية ولعله الى ارمونفيل .. ولكن يستحيل على الحصانين الوصول حتى هنالك فلا بد ان يقفا وبينا ينزلون في بعض الفنادق لا اعدم الى رؤيته سوسانيت ومحادثتها سبيلاً

ثم رأى العربة قد تجاوزت القنطرة وسارت في سبيل بلفيل حتى وصلتها فعرجت الى اليسار ثم دخلت في سكة تؤدي الى الحقول حتى وقفت ازاء بيت جميل فوقف غوستاف ايضاً وانعكف الى باب يبعد خمسين خطوة ليختفي عن الابصار ولا يرى

فنزل من العربة رجل وامرأتان دخلوا الدار واقفلوا الباب وراءهم وكان على رأس السيدتين برنيطتان كبيرتان تغطيان وجهيهما ... فلم يتمكن غوستاف من تأمل معانيهما لبعد المسافة وبدأ يوجس من ان يكون مخدوعاً واهماً فليس من تلك السيدتين من تشبه سوسانيت في تكوين جسمها فضلاً عن فرق الملابس غير انهُ يحتمل ان يكون غيَّر الميرالاي ملابسها لئلا تعرف على ان الميرالاي نفسه غير

موجود في العربة وترى من ذا يكون الشاب . . . المرافق لها والذي لا يظن ان تكون سلمت الفتاة اليهِ . . . فسوسانيت ما كانت اذًا في العربة قطعًا وراح جري صاحبنا من شارع مونمارتر الى حقول سانجرفه ادراج الرياح فكبر الحزن عليهِ واصبح فاقد الهدى نادمًا على اضاعة الوقت سدى لان ركاب العربة كانوا قد دخلوا الدار وعادت العربة الى حال سبيلها فظل فتانا في وسط البرية واقفًا حائرًا لا يدري ما العمل يقول في نفسه

— ورغاً عن كل ذلك فان اسمي قد لفظ . . . فاحدى هاتين السيدتين اذًا تعرفني . . . وليس والله في ذلك ما يدعو الى العجب لانني اعرف من السيدات كثيرات . . . ومنهن من نسيت عهدهنَّ فلا بد ان اعرف الاشخاص الذين دخلوا هذه الدار

قال غوستاف ذلك ودنا من الدار يلاحظ نوافذها فوهم انهُ رأى من خلال الستائر خيالاً معروفًا ثم وهم سماع فتح شباك وصوتًا حنونًا يعيد ذكر اسمهِ وهو نفس الصوت الذي سمعهُ من قبل فلم يبق ريبٌ في ان احدى السيدتين تعرفهُ فلا يعود الى باريس قبل ان يراها ولما كان بالقرب من الباب اخذ الحلقة ليقرع بدون الاعتماد على اسمٍ يسأل

عنهُ فاوقفهُ ذلك الصوت صائحًا

— دع عنك ذا الباب وسر بجانب الحائط متخفيًا حتى الركن الشمالي فعرج وانتظر امام الباب الصغير

فقال غوستاف في نفسهِ — ايا لله من سر . . . — اسير طول الحائط وانتظر على الباب الصغير . . . فذلك يشبه ان يكون روايةً . . ولا بأس فلنعمل الان ما أُمرنا بهِ فلسوف اعرف رواية الحادث

وسار بجانب الحائط كما امر ثم عرج على الركن الشمالي حتى رأى بابًا فوقف بجانبهِ ورفع نظره على الحائط الممتد الى مسافةٍ طويلة فلم يرَ الاَّ اطراف اغصان اشجار مستمرةً واعراش لبلابٍ ناضرةٍ مما يجعل لهُ منظرًا بهيًا شهيًا فظلَّ غوستاف امام الباب فاقد الصبر منتظرًا قدوم من يقوده الى الحديقة وسمع اخيرًا خطوات شخص يسير بخفة . . . فقال هذه والله امرأة . . . اذ سمع حفيف ثوب فخفق قلبهُ خفوقًا عظيمًا . . . فماذا عسى ان يكون الداعي لذلك لعلَّ المرأة شنيعةٌ ام عجوزٌ . . . وما المانع من ان تكون صبيةً وحسناء اذ يجمل في وقت الشك ان يرى الانسان الاشياء من وجهها الاحسن فضلاً عن هذا التستر . . . وذا الصوت . . . فكل ذلك يدل على شيءٍ لطيف يفتن الافكار

ويا عجبًا . . . كيف يأتي على الانسان في حياتهِ حوادث تولد عنده افراحًا واخرى توليهِ اتراحًا بحسب الاحوال التي تداهمهُ فيها وان اوهام الرأس تجعل القلوب معدة لحلاوة الحب ولذة السرور ووطأة الالام فنشعر احيانًا بلزوم البكاء ونرى تارةً كل الاشياء بهيةً فتانةً ولا بدع في ان يشعر غوستاف بخفقان قلب من مجرد تصور تلك التي كانت تدنو منهُ بدون ان يراها اذ قد يتأتى لنا ان نعلق في احد المراقص الهزلية شخصًا منتقب الوجه لا نرى معانيهِ ولا نعلم حقيقة حالهِ

ثم فتح باب البستان فدخلهُ غوستاف مسرعًا يضم بين ذراعيهِ . . . ليس سوسانيت المسكينة وانما مدام دبرلي الحسناء

ولقد تبع ذاك الملتقى ذهولٌ وصمتٌ وعناقٌ جعل المحبين يوجهان لبعضهما في نهايتهِ الف سؤال وكان صاحبنا ذاهلاً باهتًا لعظيم اندهاشهِ من رؤية جوليا امامهُ فلحظت مدام دبرلي ذلك وقالت متنهدة

— ويلاه يا غوستاف فانك ما عرفت صوتي ولا بدع فقد مرَّ وقتٌ طويل ولم ترَني . . . فنسيتني . . . يا قليل الوفاء . . . وكان قلبك متبولاً بحب امرأة أُخرى . . . بينما كنت اذوب اليك شوقًا وافكر بك طول ليلي ونهاري . . .

واقضي كل اوقاتي فاكرةً بك باكية نائحة على بعدك ...
وانت كنت تمضي تلك الاوقات بمغازلة غيري ... فها قد
بدا صدق اقسامك ... وما باليد حيله ... اذ لا حق لي
بالتماس دوام حبك

وجعلت جوليا تذرف الدمع السخين فوقف غوستاف
امامها جامداً لا يعلم كيف يعتذر عن نفسهِ لانهُ كان مشعراً
بعظيم ذنبهِ رغما عن تجدد اشتعال نار حبهِ من رؤية
جيوليا .

وانما قد يسهل ارضاء امرأة صادقة في حبنا اذ قبل
ان يبدأ غوستاف بالاعتذار والاستغفار دنت مدام دبرلي
منهُ تقول لهُ بمرارة

ارجوك ان تعفو يا حبيبي عن مرّ عتابي فهو عتاب
لا معنى في الحقيقة لهُ اذ ارى جيداً ... انهُ كان يستحيل
عليك الافتكار بي حال بعدك عني ولكن مالي اراك الان
صامتاً جافياً ... اواهُ ...

فعسى سلوت محبتي ولقيتَ من بعدي الهنا

ــ لا وانما انا معشرٌ بثقل جرمي وبخس ضميري

ــ وهل ما زلت تحبني

ــ حباً اشعل البعد اظا. وزاده القرب اشتعالاً

ــ فعفا الله عما مضى ولنا من تبكيت ضميرنا قصاص نحيا بهِ انفسنا ويؤثر بنا اكثر من ملام الغير لنا

ــ لله ما اصفاكِ . . . قلبًا وما اسعدني يا جوليا بحبك فلأنت اكرم من عرفت واني لاستحق وحقك عظيم حلمك

ــ لا تجعل الفضل لي . . . فانما انا احبك غير مختارة ولكم تمنيت على ذا الاحساس انتصارًا فما افلحت لان الحب كالثروة يسعد بهِ عادة غير مستحقيهِ

فاخذ غوستاف حبيبته جوليا بين ذراعيه يضمها ويغمر صدرها اللطيف بحار قبلاته وكان ملتهب الرأس بشعلة الحب ولذة اللقاء نحاول ان يعوض في دقيقة فائت سعادته اثناء طويل ايام فرقتها فاوقفته جوليا عما رام قائلة

ــ الا ما ذكرت ياحبيبي بانك انما تعرضني مرة اخرى

ــ افما انتِ هنا وحدكِ

ــ كلا ولا تأمن حضور احد الرقباء . . . فما انا في داري . . . والم تعرف السيدة التي كانت معي

ــ لا والله اذا ما عرفتك انت ايضًا فمن عساها ان تكون

ــ اورليا ابنة اخي زوجي التي كنت تنوي زواجها والتي تزوجت من منذ شهرين بذلك الشاب الطويل

الذي كان في العربة معنا

— أ تقولين حقًا

— نعم وانا في دارها وهذه الدار ملكها آتي بعض الاحيان اليها متجملة فاقضي بعض الايام بيأس وكدر لان اقامتي في المدينة او في الخلاء على حال سواء فانا بالبعد عنك شقية ايان كنت فلا سرور لقلبي ولا هنأ واخشى الان ان تلحظ مدام فرمون او زوجها غيابي وويل لي ان ابصراك معي . . فان اوريليا دنيئة القلب ناسية . فيكون هلاكي اكيدًا

— وما العمل فانا لا اجد من قلبي قدرةً على البعد عنك ياملاكي . . وابن الموسيو درلي فهل يأتي الليلة هنا

— لا فهو باقٍ في باريس حتى الاحد

— وما نحن الاَّ في يوم الخميس فاتمكن اذًا من البقاء عندك

— انا مقيمة في البيت الصغير الذي تراه على اليسار في وسط الحديقة

— هذه جنة عدن فاعطني المفتاح لانتظرك بها

— اواه يا حبيبي . . دار رأتك اوريليا . . . او زوجها

— قسى يا جوليا قلبك انا ادت تحبينني

— خذ المفتاح يا ناكر الجميل وحاذر من ان ترى

ــ كوني من ذا القبيل في راحةٍ

ــ فانا عائدة الى القاعة .. اشكو المًا في راسي يؤلمني لاتركها في ظرفٍ قريب

ــ واما انتظر مجيئك بصبرٍ نافدٍ

وتركت مدام دبرلي حبيبهـــا عائدةً الى الدار فسار غوستاف نحو البيت الصغير مسرعًا ولقد كان البيت المنفرد في وسط تلك الحديقة مؤلفًا من دورٍ ارضي ودور اخر علوي وسطح عال عليهِ نظارة معظمة (تلسكوب) تدار الى كل الانحاء بسهولة بقصد التفرج على كل الجوار المحيط بتلك الحدائق الزاهرة

ولما وصل غوستاف الى البيت لم يرَ لاستعمال المفتاح لزومًا اذ كان الباب مفتوحًا فدخل ووقف على عتبةٍ يُصعد منها الى سلم مؤدٍ الى الدور العلوي وسطح الدار وامام السلم باب للغرفة الارضية فجعل غوستاف يتساءل قائلاً

ــ يجب الان ان اعلم ما اذا كانت مقيمةً في الدور الارضي او في العلوي ولكن سيان عندي الانتظار في الواحد او في الاخر فهي قالت انها في هذا البيت مقيمةٌ ولا يبعد ان تكون ساكنةً فيهِ وحدها ما دامها تحرز مفتاحه فلندخل في الدور الارضي اذًا فاعلم الحقيقة من مجرد رؤية حجرتها

وكان باب الحجرة مغلوقاً ومفتاحه فيه ففتحهُ وبانت لهُ حجرةٌ جميلةٌ تزينت باجمل الاثاث وتحلت باتقان عظيم فاتق فدخلها متيقناً بانهُ انما هو داخل الى غرفة مدام دبرلي اذ ما كان ينقصها في الحقيقة من الظرافة شيء فسريرٌ عظيمٌ ونكاةٌ لطيفةٌ ومرآةٌ ظريفة وكراسٍ مريحةٌ جداً وستائر مزدوجةٌ ولم ينسَ بالاجمال شيء من شأنه ان يجعل تلك الخلوة جميلةً زاهيةً فنظر الى كل شيء مستحسناً حتى رأى مرآة كائنة في آخر المضجع فكبرت دهشتهُ وقال في نفسهِ

ـ ايا لله ما ابدع هذا الاعتناء واجمل هذا الذوق النحيف والاتقان البالغ وعجباً لجوليا كيف تعتني الان باشياء ما كانت تميل من قبل اليها . . . فوالله ان هاته الحجرة في الحقيقة جديرة لائقة بغادة حسناء واني لعلى كبير يقين بان حجرة مدام فريون ليست في الاتقان مثل هذه ولا غرو ان تكون اورليا الزاهدة موضوع سخرية العائلة لانها لا ترفع في وجه رجل عينيها وتقاوم اقل هزل بكل جهدها . . بل لا بدع ان ابعدت عن حجرتها كل ما من شأنه ان يحرك الشهوات ويؤثر في الحياء فوارحماه لزوجها فليس في الدنيا شيء يبعث على ملال العيش مثل امرأة زاهدة . . . ولكم اتوق الى معرفة الحال التي نقصت بها

ليلة زواجها الاولى

واقفل بعد ذلك باب الحجرة ثم القى نفسه في كرسي كبير ليرتاح فيه حتى مجيء جيوليا وعاد الى الافتكار بحوادث النهار مقرّا بانهٔ ما خرج من الدار بقصد الاجتماع بجيوليا ولم يخدع نفسه بمحال وهم امكان وجود سوسانيت في حجرة مدام دبرلي فوارحماه ياسوسانيت الك ... فلعلهٔ قد نسيك ... لا فانهٔ فرض على نفسهِ مداومة السعي والتفتيش عليها والاكتشاف على المنفى الذي وجهها اليه الاي البوه وتأخير يوم او يومين لا يغير من شديد عزمهِ شيئًا بل يسهل عليهِ بلوغ المرام اذ يظن الناس بانهٔ ما اهتم بالتفتيش على الفتاة فتقل ملاحظتها و ينكفئ الرقباء على الاعقاب فتتمكن حينئذٍ من ايصال اخبارها الى حبيبها ...

وكان صاحبنا جالسًا في حجرة مدام دبرلي يعيد هذه الافكار في رأسهِ وهي لعمري غير التي كان يتصورها حين خرج من قصر خاله آنسًا راكضًا في شوارع باريس على غير هدى تابعًا عربة غريبة حتى بلفيل ... فيا لله

وكان سلطان الظلام قد بسط على البسيطة اجنحته السوداء منذ مدة فغدا غوستاف يكبو من النعاس فوق كرسيه حتى لمع في البستان نورٌ اضاء الفضاء وجعل يتقرب

من البيت الصغير فسمع غوستاف عدة اصوات تتبادل الحديث فقام مذعورًا وانصت مصغيًا فعرف صوت اورليا وسمع رجلاً يحادثها ويكلم جيوليا فظن ان قد اراد العروسان التلطف في ايصال مدام دبرلي الى منزلها ولكن ويل لها اذا بالغا في الرقة حتى يدخلا الحجرة التي اتخذها له مقيلاً اذ يصبح عرضة لكل الاخطار الموهومة ولا يبعد والله ان يعملا ذلك . . . لان الاصوات كانت تزيد اقترابًا وتزيد غوستاف يقينًا بعظم الخطر فتحير ولم يرَ محلاً يحتجب به عن اعين الرقباء المتسائقين الاّ السرير فاختبأ تحته على رجاء ان لا يلبث هناك طويلاً

وبعد ان دخلوا الدار تمكن غوستاف من سماع كلامهم مليًا اذ قالت مدام دبرلي تخاطب اورليا

— من ذا الذي زيّن لك النوم في ذي الليلة هنا

— لطف المكان الذي اصلحته في الاسبوع الفائت عمدًا . . .

— يا للجنون . . . فان اقامتك في الحجرة المطلة على الشارع كانت اجمل واحسن

فقال المسيو فريبون

— ان ازوجتي افكارًا غريبة فهي تعمل وتخرب بحسب ما يتراءى لها ولا تسألني في ذلك رأي

— اظن ياسيدي بانني هنا حرة انام محل ما استحسن واريد

— صدقت يا زوجتي ولكن ...

— ولكن ولكن ... فانا اقول لك اننا نكون هنا احسن

— فقالت مدام دبرلي

— على ان هذه الدار يا عزيزتي اوريليا رطبة

— وكيف تنامين انت بها ولم يصبك ضرر

— لانني لا انام في الدور الارضي

— وانا لا اخشى الرطوبة .. فتعالي يا عزيزتي وتفرجي على غرفتي بعد اصلاحها ... وفتحت الباب بدون انتظار جواب امرأة عمها فتبعتها جيوليا مرتعشة وجلة من ان يكون غوستاف في انتظارها هنا لك لانها ذهلت لما قالت له انها مقيمة في الدور العلوي على انها اطمأنت بلحظة اذ ما رأت غوستاف في الحجرة فقالت

— فابقي اذًا هنا اذا طاب لك المقام واما انا فذاهبة الى مضجعي لان ألم الرأس يشتد معي ... وربما لا استيقظ في الغد الا متأخرة

قالت مدام دبرلي ذلك واتجهت نحو الباب لتسرع

في الصعود الى حجرتها وتلاقي غوستاف حبيبها

على ان ذلك المسكين كان في سجنهِ مستسلمًا لعوامل اليأس اذ تبين من الحديث الذي جرى انهُ انما يوجد في الحجرة التي نوت اوريليا وزوجها على النوم فيها

ثم اقفل الزوجان باب الحجرة وخلعا ملابسهما ليذهبا الى المضجع فلم يبقَ للمسكين الى الخلاص من سبيل بل ياحسن حظه لو بقي امره مكتومًا ولم يكتشف عليهِ اذ لا يبعد ان يظنوهُ حينئذٍ لصًا . . . لا فان اوريليا تعرفه وتعرف من اي اللصوص هو فلا بد اذًا من بقائهِ تحت السرير مستكنًا حتى يأتيهِ الفرج العاجل الساهل فيخرج من هنالك آمنًا

وقد استعاذ غوستاف وجعل يستنجد حسن طالعه ليمنع الزوجين من التفتيش تحت السرير قبل ان يناما كما يفعل ذلك عادة كل من كان جزوعًا وظلَّ كاتمًا انفاسه ينتظر قضاء القدر او رضاء الحب لينام الزوجان بسلام ويخرج المسكين من قبيح مخبإِهِ

فخلعت اوريليا ملابسها وارتدت بقميص النوم ووقفت تنتظر انتهاء زوجها من خلع ملابسهِ فقال غوستاف في نفسه

— يصاب المرء بما لم يكن لهُ في الحسبان ولسوف اقف

الان على خفايا اسرار حلاوة الزوجية ولقد كنت اعلل النفس بامال ان اقضي ايامي متمتعاً بلذة الهوى فما صح تعللي وقضي عليَّ بان اكون شاهداً فيا لله من بون بعيد غير اني ربما تعلمت شيئاً جديداً ويجمل احتمال المصاب بصبر حين لا نرى الى المناص منهُ سبيلاً

ثم تبين من حديث العروسين انهما غير راضيين اذ سمع اورليا تقول

— ارجوك ان تحلَّ الصدرية لي . . . ويا ويلاه من قلة حيلتك . . .

— فيها يا زوجتي عقدة . . .

— اقطع الخيط . . . ولا تحير بعقدة خفيفة

— ها قد انحلَّت . . .

— الحمد لله فما كنت اظن امكان فلاحك . . . ولماذا تعتم بقبعة القطن قل لي

— تحرساً وتوقياً

— اخلعها فهي لا تليق لك ولقد جعلتك شنيعاً واولئك هيأة الحمقاء . . .

— كفى انها تريحني اذ لا ارضى بان أُصاب في هاته الحجرة بزكام مزهق وقد اقربت انت ايضاً بانها حجرة رطبة

ــ يا لخجل العرسان منك فقد اصبحت كالطاعنين في السن تحرزًا فألا ما لبست ثوبًا من الصوف (الفلانيلاً) طويلاً

ــ لا تقنطي فلا بد لي من لبسه قريبًا لانه يقي من امراض كثيرة

ــ رحماك لا تتبع القول بالعمل فذلك يتم مصابنا . . . بل آمرك بالأ تلبس لانني لا اود ان ارى على السرير بجانبي بجة صوف . . . تشيك جلدي

ــ انت في خطاء مبين ويا ليتك تلفين بالصوف كل جسمك

فضحكت الزوجة ضحكة صفراوية واضطجعت على السرير فقال غوستاف في نفسه

ــ ويّ من ذي المرأة . . . فلكم كانت تظهر من كاذب الحشمة وتستأ الان من ان يتدثر بالصوف زوجها . . . وهي هي تلك التي كانت لا ترفع حين تحادث رجلاً عينيها فليثق الناس بعدها بخداع الظواهر

وبعد برهة صمت قالت اورليا لزوجها

ــ الم تنتهِ بعد من تخطرك جيئةً وإيابًا وألا تنام الليلة في سريرك

— في الحال عزيزتي فانما كنت ألاحظ الابواب والاقفال

— أتخشى اللصوص

— لا وانما اخاف هواء الليل فليس في الخلاء ادعى الى العياء مثل رطوبته

— اهِ لو علمتُ ذلك من قبل زواجك ودريتُ بانك تزمع لبس مسح الصوف وعرفت بانك تنام بطاقية القطن لكنت تبصرت قليلاً . . . ولا بدع في ان الظواهر خادعةٌ جدًّا . . . اذ كنت تتظاهر بالفتوة والشجاعة والاقدام وعدم التعب . . . والله بحالك اعلم .

— انما يؤخذُ الزوج لحسن صفاته

— حسن صفاته . . فاين حميد صفاتك . . . فانجز بالله مشيك وتعال الى حالاً

فاطفأ فريدون الشمعة ونام بجانب زوجته فقالت

— ولما اطفأت النور

— لأنام اذ لا اقدر على النوم والشمعة منورة امامي

— لكي تنام . . فنَمْ وويل لي ان فاتحتك لانك . . .

— أيكدركِ ياعزيزتي نومي . . .

— ويلاه من بلاهتك وكفى بذلك لك قصاصاً . . . بل قل لي ماذا ينفعني تعليق المرآة اذن في المخدع . . .

ــ وأي دخل للمرآة المعلقة في مسألة نومي فما كنت والله لاظن امكان الانتفاع بها ليلاً

ــ صدقت سيدي فهي لا تصلح لشيء مع رجل مثلك

فسكت الموسيو فريبون ولم يجب على اهانة زوجته فصمتت هي ايضاً وصعب على غوستاف حبس ضحكه من سماع حديث الزوجين غير انهُ تمالكهُ بالرغم عنهُ فاستولى الصمت مدة خمس دقائق ما نام العروسان بعدها اذ سمعها غوستاف يتقلبان في السرير على كل ناحية حتى عادت اوريليا الى الحديث فقالت

ــ عساك عزمت على النوم حقاً

ــ اي والله ولا ارى في نومي شيئاً خارقاً للعادة . . . فلقد جريت اليوم في باريس كثيراً . . . حتى امسيت تعباً عاجزاً

ــ تدّعي التعب هرباً مني وما انا بمنخدعة به ولا ارضى بان تمرّ الليلة هكذا

ــ ألا ما ذكرت ان بالامس . . .

ــ بالامس . . . ويلاهُ منك ومن اعتراضك . . . أهذا كلام من تزوج من منذ ستة اسابيع فهو لعمري ما لا يطاق وارى ان لا بد من افتراقنا اذا ثابرت على مثل ذلك . . .

ــ اني والله لفي اندهاش منك يا زوجتي ... وما كنتُ قط لانتظر سماع ذلك من فيكِ ... انت التي تحرزين امام الناس كثيرًا وتفسين على الاخلاق الطائشة جدًا بل انت التي كنت توجهين سهام الملام اليّ لمجرد اني غنيت دورًا لطيفًا ... وانت التي تستغربين امكان الذهاب الى التياترو لحضور رواية «المسرور» ورواية «النساء المتنقات» والتي طردت خادمتين لتحليهما ببعض حسن واقصيتِ عنك طباخةً رفعت في حال تقديم الطعام عينيها فانتِ انتِ التي تلومينني الان لكوني سألتك ان تدعيني بسلام لاخذ بعض راحةٍ

ــ واية علاقة لطويل ما قلتَ مع سرّ الزواج ... فانا احب التحرز امام الناس نعم ... غير ان كل الشرائع تأمرنا بالامتثال الى حكم الطبيعة ... وتجيز لنا التمتع بلذة القران لننمو ونتناسل فانت تخالف الان كل هذه الشرائع بعدم الانقياد الى انفاذ احكامها

ــ مهلاً يا زوجتي ولا تغضبي فانت تعلمين حبي لك وعظيمَ حنوي ...

ــ الفعل قاصٍ والكلامُ كلامٌ ...

ــ بل طالما انيتُ على قولي بشاهد فعلي ... فلنضم

الان يا حبيبتي بعضنا فيتم صلحنا . .

ـــ اكرم بك . . . وحبذا او تسرعت في العفو والرضاء نظيري . . . آه . . . ما انت فاعلٌ

وهنا صعب على غوستاف فهم بقية حديثها لان طقطقة السرير كانت تمنعه من سماع كلام اوريليا على ان الحرارة والحدة التي كانت ترافق صوتها جعلت غوستاف لا يملك من نفسه حاسة تمني القيام مقام فريون ولو دقيقةً واحدةً

*

*

٦

تخسر جيوليا جمالها و يفقد غوستاف لباسه

ولقد انتهى حديث الزوجين فهدأ الليل وما عاد ليتعكر بكلام اوراليا ولا بطقطقة سريرها فعلم غوستاف انهما قد ناما وعزم على اغتنام فرصة اغفالهما للفرار اذ ما كان يأمل فرصة اعظم منها لانهُ لو انتظر حتى طلوع النهار لصعب حينئذٍ عليهِ الاختفاء عن اعين الخدم فلا بد اذاً من اغتنام ساعة نومهما

فتزحزح غوستاف من مخبائهِ بخفةٍ سائرًا على يديه وركبتيهِ رويدًا رويدًا حتى وصل الى وسط الحجرة فاحتفز واقفًا وسار نحو الباب محسسًا بيديه حتى دنا منهُ واذا برجلهِ عثرت بكرسي ما وقع تحت يدهِ وكان عليهِ صحنٌ فطار في

وسط الحجرة شذرًا فاستيقظ الزوجان مصروعين وصاح فريمون مضطربًا قائلاً

— مَنْ هنا

فعدل غوستاف عن التحسيس ساعتئذٍ علمًا بانه لا يجيبه ورأى انهُ يجب النجاة باية الطرق فاهتدى الى الباب وفتحه بسرعةٍ كلية وصعد على السلم فصارت اورليا تنادي باعلى صوتها

— انجدونا . . . فقد دخل اللص دارنا . . .

وجرى فريمون الى بندقيتهِ فاخذها وخرج وراء غوستاف الذي وصل الى الدور العلوي وطرق الباب ينادي جيوليا بصوتٍ منخفض فلم يجبهُ احدٌ وسمع على السلم وقع اقدام خال لهُ بعدها ان فريمون يوجه البندقية الى صدره لينفذ رصاصها فيهِ فطار عقله وارتقى سلمًا اخر حتى باب السطح فدخل واقفل الباب وراءه فصار لبعض ثوانٍ في مأمن على ان زوج اورليا كان على علم بصعوده الى السطح وقد نزل ينادي الخدم وهربت زوجته الى البستان وما عليها سوى القميص

وعدم رد مدام دبرلي على نداء غوستاف وعدم فتحها الباب لهُ كان لسبب غيابها عن الحجرة في منتصف الليل

اذ انها لما صعدت الى حجرتها كانت تأمل ان تجد غوستاف فيها . فتأمل عظيم اندهاشها حين ما رأت احدًا فجعلت تنظر الى كل زاوية وتبحث في كل دولاب وخزنة حتى على السرير ولم تجد غوستاف على فرط حيرتها ...

فعجبت لاختفائهِ وصعدت على السطح فلم تجدهُ . . فاين اختفى ... وهي على يقين من انهُ ليس في حجرة بنت سلفها اذ دخلت هناك وما رأته فتحيرت المسكينة في امرها ثم فتحت الشباك ونظرت الى البستان منصتةً تسمع بقوة ... فلم يبدُ امامها احدٌ

فقالت في نفسها عساه ان يكون سئم الانتظار فسار ... لا فان غوستاف ما كان ليدعني هكذا في حيرةٍ بل ربما تحسب من ان يراه في البيت احدٌ ففضل انتظاري في الحديقة ... فلنفتش عليهِ في البستان ايضًا

فاخذت مصباحًا ونزلت السلم بخفةٍ ورشاقة لئلا توقظ الزوجين وراحت تدوّر في كل بقعةٍ وتحت كل روضةٍ مناديةً غوستاف بصوتٍ منخفض حالما كان المسكين تحت سرير اورليا مسجونًا

وكان البستان كبيرًا وما فتشت جيوليا الاّ نصفهُ حتى سمعت اصوات فريمون وزوجته تجرح اذنيها فوقفت

مضطربةً خائفة تقول « يا للفضيحة ... قد وجدوه ... فهلكنا ... »

وجرت نحو البيت مسرعةً فصدفت في زاوية احد الماشي اورليا التي صاحت مذ رأتها قائلةً

— الفرار يا امرأة عمي الفرار في الدار لصٌّ

— في الدار لص ...

— نعم نعم ... افما سمعت صراخنا

— نعم سمعتُ ونزلت البستان من اجل ذلك ...

— احمد الله الذي لم يرَك وهو الان على السطح

— أ انتِ متيقنةٌ

— كل اليقين فلقد كان مختبئًا تحت سريري ...

ويا خجلي اذ رام فريبون ... ان يعمل لي ... فآه لو علمتُ ياعزيزتي . ولا تذهبي من هناك رحماك . بل لا تدني من البيت فلربما اطلق عليك من اعلى السطح رصاصًا

فلم تصغِ مدام دبرلي لتحذير اورليا وسارت نحو البيت مسرعةً حتى وصلتهُ فاضأت السلم وفتحت الباب فرأت في وسط الحجرة رجلاً اسود اللون معفرًا فصاحت خائفة وإنما زال في الحال رعبها اذ عرفت أغوستاف المسكين الذي لم

يجد للوصول اليها وخلاص نفسه الاَّ النزول من المدخنة سبيلاً فقالت له

— انت هنا فوارحماه يا غوستاف لحالك ...

— كنت بوجود سبيل هذا الفرار سعيدًا

— ولكن ماذا يقولون حين لا يجدوك على السطح

— يظنون انني وثبت الى البستان

— بل جاءني وحيٌ ... نعم ... فها هم حاضرون ..

ودنت من الشباك ففتحتهُ ورأت فريمون آتيًا مع البستاني وخادمهِ وثلثة او اربعة من جيرانهِ تمكن من ايقاظهم فرافقوهُ ليوقفوا السارق

وكانوا على عزم الصعود على السطح بسيوفهم وبنادقهم فصاحت مدام دبرلي من الشباك بهم

— هرب اللص من هنا اذ رأيتهُ يثب من اعلى السطح الى البستان ويرتقي ذلك الحائط

— أانت يا امرأة العم متأكدة ... فان ذا الحائط عالٍ ولا ارى في المعرش اتلافًا

— هؤلاء الناس مثل القططِ

فقالت اورليا — لا تقطعوا الامل بل فتشوا الدار والسطح ايضًا

فخلع غوستاف ثيابهُ بلمحةٍ ونام على السرير قائلاً

— اومل ان لا يأتوا للتفتيش عليَّ هنا ايضاً وبالاخص اذا كنتُ في سريرك

ففعلت جيوليا نظيره ثم سمعا اقداماً تنزل السلم بسرعة ونقرع الباب بشدةٍ والموسيو فريون يصيح قائلاً

— افتحي يا امرأة عمي افتحي

— ولماذا

— لان اللص لا بد من ان يكون في حجرتك او في المدخنة ... فنحن على يقين من انهُ نزل منها لان غطاها مكسورٌ ...

— وانا اقول لك انهُ لا يوجد في هذه الحجرة احدٌ ... ولو كان فيها شيءٌ لرأيتهُ

— هو يا امرأة عمي مختفٍ .. فافتحي حالاً والاَّ هلكت ...

— انا عريانة ... فانتظر هنيةً ..

وكانت جيوليا تخلع ثيابها حقيقةً ولما انتهت اخفت ثياب غوستاف بين المراتب ودنت من الباب تقول

— ها انا ذا افتح لكم وانما لا تدخلوا حالاً بل ارجوكم ان تفسحوا لي وقتاً يمكنني من دخول سريري

وفتحت الباب واسرعت في التمدد بجانب غوستاف الذي اضحى يضمُّ بقدر الامكان نفسهُ وتقرب على الخصوص من موضع يستحيل الظن على احدٍ بامكان اختفاء اللص فيهِ

فدخل فريدون والخادم والجيران مصوّبين الى الداخل بنادقهم وفتشوا في كل ركنٍ ونظروا في المدخنة واطلقوا طبنجتين فقالت مدام دبرلي

— أقنعتم الآن بانهُ لا يوجد هنا فلربما كسر غطاً المدخنة حال وثوبهِ من اعلى السطح الى الاسفل

فقالت اورليا التي كانت على الباب واقفةً

— وما قولكم في انهُ ربما تخبأ تحت سرير امرأة عمي

فنظروا تحت السرير ... ولم يجدوا احداً

— ما دمتُ قلت لكم انني رأيتهُ بعيني يتسلق الحائط الايمن ...

— فلربما كانوا يا امرأة عمي اكثر من واحد

— مهما كان الامر فهنا لا يوجد احد واؤمل انكم تدعوني انام بسلام

— تنامين ... يا عزيزتي .. تريدين النوم واللصوص في دارنا

— ما دمتُ على يقين من انهم هربوا فيمَّ اخاف

فقال فريمون لجيرانو

ــ فلنذهب الان الى البستان لنبحث جيدًا فيه

فقال البستاني

ــ ابيت اللعن يا مولاي فان اللص يكون سقط في دار الموسيو كورنو معلم الكتاب القريب اذا تسلق على الحائط الايمن حقيقةً

ــ اصبت فيجب ان نوقظ الموسيو كورنو فعسى ان نتمكن هناك من ضبطهِ

فهمَّ الرجال على الخروج فاوقفتهم اورليا قائلةً

ــ وانا تتركوني هنا فلا ارضى البقاء في حجرةٍ ارضيةٍ وحدي فانهم اذا كسروا بابها دخلوا لي

ــ تعالي معنا سيدتي

ــ اخرج بهاته الهيأة لا . . . ابدًا ابدًا . . . فان الجيران راؤا والله كثيرًا . . . فانا اظل هنا مع امرأة عمي فهي باسلة لا اخاف معها شيئًا . . . اتسمحين يا امرأة العم لي بأن انام على السرير بجانبك

ــ يا للجنون

ــ رحماك يا امرأة عمي . . فاذهبوا يا خواجات وانما ابقوا البستاني لي حارسًا . . . وليقف تحت السلم

فنزل الرجال وقد تركوا البستاني في العتبة خفيرًا مأمورًا باطلاق النار عند اول اشارةٍ وذهبوا ابوقظوا الموسيو كورنو تاركين اورليا عند مدام دبرلي

وكانت حالة غوستاف محظرة جدًا مع انهُ لو كان في غير هذا الوقت لاستفاد من مركزه كثيرًا وانما كان الان يرى ذلك الثمر المبذول لهُ عليهِ محرمًا فتمرمر اذ ما كان حاصلاً على عفة ذلك الزاهد الذي كان ينام بين فتاتين اماتةً لجسدهِ ومقاومةً للشيطان وانتصارًا على تجاربهِ بل كان بالعكس مملوءًا من الروح الخبيث الذي ما كان يمكنهُ التغلب عليهِ ولا غرو انك لو وجدت ايها القارىء مع غادةٍ حسناء لما امكنك والله مقاومة التجربة ابدًا

وكانت جيوليا في مركز اصعب من مركز غوستاف حائرة خائفة تنظر الى اورليا التي ربطت رأسها بمنديل وعزمت على دخول السرير لتنام بجانبها فما كادت تمضي دقيقة الاَّ وتكتشف مدام فريدون على كل خفي . . . وكان السرير مقربًا من الحائط جدًّا بحيث لا يمكن النزول من على طرفهِ الاخر . . . فما العمل . . . وكيف اجتناب الخطر . . . فيجب الاتيان بعمل قوي بل يجب المخاطرة احيانًا بكل نفيسٍ حفظًا لشيءٍ واحد . . .

وعليهِ ففي حال ما عزمت اورليا على دخول السرير وثبت

جوليا عنهُ واخذت النور الذي كانت وضعتهُ على مائدة الليل من قبل فسألتها اورليا قائلة

ـــ اين تذهبين يامرأة عمي

ـــ يخال لي انني سمعت حركة . . . واظن باننا ما فتشنا في الدولاب الكبير

ـــ ويلاه انك تخيفينني فلا تدني منه كثيرًا . . . اذ لو كان فيهِ احد حقيقةً

ـــ يجب ان نتأكد الامر . . .

ـــ انتظري فانا ذاهبة لأُعلم البستاني . . .

وفتحت اورليا الباب تنادي البستاني وبينما كانت دائرة ظهرها اشعلت جوليا بعض اوراق رأتها في قعر الدولاب ودنت من مدام فريمون حال وصول البستاني مستعدًا لاطلاق النار على السارق فقالت مدام دبرلي

ـــ لقد وهمتُ فما رأيت احدًا

ـــ لا بأس يا امرأة عمي فلنبحث في كل الاركان جيدًا

ودخل البستاني في الحجرة فرأى عمودًا من الدخان منبعثًا عن الدولاب فصاح

ـــ ويلاه يا سيدتيَّ فها نحن في مصيبةٍ اعظم . . . ان اللص احرق الدار . . .

ـــ النار النار ...

ـــ اواهُ من سوء حظي فلربما سقطت من يدي شرارة وانا افتش في الدولاب

ـــ النجاة يا امرأة العم الهرب فقد بدأتُ اختنق ...

وكان بدأ الدخان يملأ الحجرة حقيقةً فنزلت اورليا صارخة صراخاً مريعاً وترك البستاني بندقيتهُ ليأتي بالماء فبقيت جوليا مع غوستاف وحدها فوثب المسكين من السرير ورمى بنفسهِ بين ذراعيها فقالت لهُ

ـــ انجُ يا حبيبي بنفسك ... واغتنم هاته الفرصة ... وعلى هاته الليلة الله اكبر ...

ـــ وانا كنتُ يا حياتي لحزنك سبباً ...

ـــ اذهب حالاً فقد خنقنا الدخان

ـــ فاخذ اذن ملابسي ... اذ لا اقدر على الخروج هكذا ...

ـــ رحماك ... اخرج اولاً من هاته الحجرة ...

ـــ اواه اذهب وادعك وحدك ... ولا اراك بعد الان ابداً ... ويلاه من سوء حظي ...

ـــ انزل وخذ مفتاح الباب الصغير ... واستودعك الله يا غوستاف فانجُ بنفسك

قالت جيوليا ذلك ودفعت غوستاف خارجًا عن الحجرة التي امتلأت بالدخان وكان البستاني صاعدًا في تلك الدقيقة على السلم حاملاً بيديه داوي ماء فرأى فتى هاربًا بعجلة فلم يبقَ عنده ريب في كونه اللص الذي عنه يبحثون ولما كان مجردًا من سلاح يقتله به وضع احد الدلوين على الارض واراق الاخر على ظهر غوستاف الذي ابتلّ حتى العظام وعظم الامر عليه فرفس خصمه رفسة مغتاظ فاضاع المسكين رشده ووقع على درجات السلم متدحرجًا فوثب غوستاف من فوقه وابعد عن البيت المنحوس ٠ وكان من حسن حظه ان ابعدت اوريا من قبل خروجه فاختباء في المشى المؤدي الى الباب الصغير ثم فتح وصار في وسط الخلاء حرًا٠ وكانت هاته المرة الثانية التي يشب فيها عريانًا بين الآكام والغابات والحفر والتي وجد بها من اجل جيوليا في هاته الحالة التعيسة

فقال صاحبنا في نفسه «لقد قضي الامر وما عدت اعرض نفسي الى مثل هاته الاهوال فان هاته الغادة عزيزة المنال»

ومذ ابتعد عن دار فريمون بقدر مرمى الرصاص وقف ليتدثر الثياب فوقع في مشكلةٍ شر من الاولى اذ وجد انه قد اخذ عوض البنطلون تنورةً وبدل الصديري كركةً

وبدل السترة فسطان امرأة وبالايجاز نقول انهُ اخذ ثياب جيوليا بدلاً من ملابسهِ وكان ذلك خطأً مقدر الوقوع لان جيوليا كانت حشرت ملابس غوستاف بين المراتب ووضعت ملابسها على الكرسي القريب من السرير مكان الاخرى فاخذ غوستاف الملابس التي كانت على الكرسي بدون ان يعرفها لان الدخان كان للحجرة مالئًا يستحيل معهُ تمييز الاشياء عن بعضها

فتدثر غوستاف بتنورة من التيل الناعم وبفسطان من التفتاء الرمادية اللون قائلاً في نفسهِ «يُقال ان للعشاق ربًا يحميهم وانما اظن بان قوى الجحيم كانت في ذي الليلة شفيعتي وبما انني مضطرّ فلا يسعني الاّ ان اتزيى بزيّ النساء ولا انكر ان هذا التغيير يكدرني الان جدًا لان تنورة التيل وفسطان الحرير وخمار الكريش لا تصد هجمات الهواء عني ولا تقيني مع بلل جسمي مثل سترة وبنطلون من الجوخ وبرنيطة ولو كنا في الصيف لهان الامر ... غير اننا في شهر مارس ... ولا اعلم اي شيطان زين لفريمون الاقامة في الخلاء في مثل هذا الاوان ... وما كان اغناني عن لحاق تلك العربة ... ولماذا ظننت ان سوسانيت فيها ... واي داهية بعمل النساء بكل هاته الشرائط ... وها النهار قد

لاح اتماماً لتعسي . . . فيا لله ما العن هاته الليلة . . . انام مع غادةٍ حسناء بدون . . . ثم أبل من الرأس الى القدم . . . وأختنق بالدخان . . . والبس هاته التنانير . . . فيا ويلاه لو رآني خالي بهاته الحالة . . . ومدام دي فونبلُ التي اقسم كل يوم لها بانني راشدٌ عاقلٌ ثابتٌ . . . ألا قاتل الله الرباطات والبنود . . . ولنسرع الان لأصلَ باريس قبل اشراق الغزالة اذ لو رآني البوليس بهاته الثياب الخادعة لقادني الى السجنِ حالاً

وبينما كان صاحبنا جالساً على شاطيء جدول محاطًا بنباتاتٍ واشواكٍ يلبس تلك الثياب على عظيم يأسوكانت مدام دبرلي تعرّض من اجلهِ نفسها لأعظم الاخطار فانها كانت سائرة في اثره عندما قابلهُ البستاني وبللهُ من رأسهِ الى قدمهِ ورأتهُ منتصرًا على خصمِهِ وداخلاً في الحديقة فقالت « ان الملابسة بين المراتب فلعلهُ غلط . . . وعساه اخذ ملابسي بدلاً من ثوبهِ . . . فوارحماه للمسكين اذ لا يبعد من ان يصاب بمرض وبيل اذا لم يدفأ بثياب جوخ ناشفة »

وما خطر هذا الفكر على خاطر جيوليا حتى عولت على جسارةٍ عظمى لان النساء عندما يفتكرن في انقاذ موضوع حبهنَّ لا يقدرن الاخطار قدرها . ورسخ في ذهن مدام

دبرلي ان غوستاف معرضٌ لمرض عياء اذا لم يسعف بثياب اقوى من فسطان الحرير وتنورة التيل الرفيعة

فعادت الى السلم ترتقيه كالطائر وكان الدخان ملأ قسماً من الحجرة ولم يصل السرير فاطبقت عينيها وحبست نفسها واندفعت الى الغرفة .. حتى لمست المراتب فرفعتها واحست بثياب غوستاف ... فسحبتها بقوة ... ثم ضمت هاتة الاجواخ العزيزة ... وقصدت الباب ... فخنقها الدخان ومسها اللهيب فاشتعلت شعورها المسترسلة على ظهرها فغاب رشدها وفقدت الهدى فسقطت على السلم صارخةً

— لهفي عليك يا غوستاف

وما كان يُرجى لجوليا حياةٌ لو لم يتداركها البستاني الذي كان صحا من اغمائهِ واسرع الى الغرف حاملاً دلو الماء الذي ظلّ ملآناً فرأى مدام دبرلي ملقاةً على السلم فحملها بين ذراعيهِ ونزل البستان حيث اراق الماء على رأسها اطفاءً للنار المشتعلة في جميل شعرها فاتتها النجدة حينئذٍ من كل ناحية مجذوبةً بصراخ اورليا التي كانت تنادي زوجها الذي ايقظ المسيو كورنو معلم الكتاب وتلامذته اجمعين وكان الجيران يحملون الماء متراكضين فتمكنوا من اطفاء النار حالاً بعد ان افنت اثاث الدور العلوي وفي

جملتها ملابس غوستاف

وعادت مدام دبرلي بعد ذلك الى وعيها ... في حالةٍ محزنةٍ فان النار شوهت ضاحي وجهها وقضت عليها باحتمال علامات الحروق في كل حياتها فصاحت اوراليا لما رأتها آيسة وخضعت جيوليا الى المقدر المسطور قائلةً

— اصبحت واحسرتاه شنيعة وخسرت بديع جمالي فما عدت لارجو من غوستاف على الحب بقاء وللعهد وفاء ... وانما لا يغير ذلك من نار قلبي ... ولا يُعَرِّض المسكين لاخطارٍ جديدةٍ من اجلي ولا اخون انا بعد الان واجبي

فوارحماه لجيوليا المسكينة التي فقدت في الحقيقة معاني بديع جمالها ونالت جزاء زلتها في القسم الذي اخطأت فيه

*

*

٧

نكبة في الكورتيل

وكان غوستاف سائرًا في سكة باتّفيل مسرعًا وقد لفح بالخمار اذنه وغطى بطرفه صدره. وما احسن لبس التنورة فكانت بادية من تحت فسطان من الحرير ملوث الاطراف بالحمأة. ولاح على المسكين النهار يبالغ في التحرز والانتباه اجتنابًا لما ربما تجلبه ثياب النساء من الوبل والمصاب له في شارع مثل حي كورتيل المشهور بكونه مربع النزاع الدائم والحوادث المغائرة. فتجاوز غوستاف المدامور وضاعف السير رافعًا طرف الفسطان باحدى يديه وحاملاً التنورة باليد الاخرى متحيرًا بين حملها ومسك النقاب الذي كان الريح يتهدده بالذهاب به مع هبوبه غير ان سوء حظ فتاتنا قضى

بان يحصل في تلك الليلة نزاعٌ شديدٌ بين المسيو فافوري والمسيو جانجان كورتيبون بسبب فتاةٍ حسناء تعرف بنانون ساكنة في حي سانمرتين تبيع فيه بيضاً احمر فاختلف المسيو فافوري اليها وهو مشخص في احد مراسح الحي مشهودٌ لهُ بالبراعة والاتقان وكان المسيو كورتيبون العسكريُّ معروفاً بضرب المزمار بين اهل الحيّ طرّاً فاجتمع الصاحبان على حب تلك الفتاة التي سلبت منهما العقل والفؤاد بما جملت بهِ من بديع صفات جمال وفائق رقةٍ وجعل كل منهما يُريها في الغواية اقتداره فما أعارت لاحدهما سمعاً وظلت في سبيل الواجب سائرة تلاطف الاثنين ولا تقضي لهما ارباً

غير ان نانون كانت بهوى الرقص مولعةً وكان فافوري من اهل الخفة المشهود لهم بالبراعة والاتقان في رقص الفالس الالمانية فتقدم الى الفتاة مسترحماً ان يكون في الرقص لها استاذاً فقابلت لطفهُ بالقبول وصارت تذهب معهُ مساء كل ليلةٍ الى قاعة دنوبيةٍ وخلافها يرقصان حتى يضنيهما التعب

ولقد اشتهر عن فافوري وجانجان انهما من اشد الفتنة الغاوين لسابق انتصارهما على فضيلة كثيراتٍ من الحسان المعروفات لحد ذلك العهد بالطهر والعفة فما كانا اذن

ليئسان من قاسي كلام نانون اعتقاد ان لاقسى النساء ساعةً يسود الضعف فيها على قواها وما كانت الصعوبة الاّ في اغتنام احدى تلك الساعات ...

وحدث انهُ بينما كان فافوري مشتغلاً في احدى الليالي بتشخيص رواية مهمة في تياترٍ كما لو جاء جانجان يعرض على نانون في رقص الالمانية متأ لة تحضرها في احدى قاعات دنو بية عليه

فقبلت نانون دعوتهُ لانها كانت اخذت في التقدم واملت ان تظهر يوم الاحد القادم في احدى القاعات العمومية بمظاهر الرقة والاتقان . فسارت مع جانجان الى قاعةٍ في الدور الاول حيث فتحت بابها وكل نوافذها انفاذاً لصارم عادتها واكراماً لجانجان على التزام حد واجباته

فامر الصديق بزجاجة خمر ابيض فاحتست نانون كأساً منها بلا كلفةٍ ولا شكر وصار جانجان يجرع كلما خطا خطوةً كأساً

ولقد اثر الخمرُ في ضارب المزمار او بلغت شهوته حدها فاحس باشتمال نارٍ ما كان يحس من قبل بها وصار يستنبط في الرقص خطواتٍ جديدةً بالغةً حد اللطف والكمال ويبتسم لفاتنته برقةٍ مزودةٍ بلطيف احاديثٍ تذهب بلب

الناسكات حتى سحر لب نانون التي اشعل النبيذ نارها فجعلها تدور كالريشة بين يدي استاذها

وكانت قاعة دنو بيه قريبةً من قاعة تياتر كالو الذي كان يلعب فافوري فيهِ مشرد العقل نائهًا بقوة تذكار شديد حبهِ لنانون واسع افاعي غيرتهِ عليها فابصرها من النافذة راقصةً مع مناظره راقصةً فطار عقله من ذلك المنظر وثارت عواصف غضبهِ فقلب ثلاثة كراسٍ واخذ يد مكنسةٍ كان على رأسها بعض اغصان اشبه بنخالةٍ ووثب فوق ضخم الصناديق حاملاً عصاه بيدهِ يقفز على التكأات والموائد ويكسر الكؤوس ثم اوقع على الارض رجلاً مسكينًا كان يقرب الكأس من فيهِ ورجلين كانا يدان التوم على خبزهما دافعًا قالبًا كاسرًا كل ما حال دون سبيله حتى نزل السلم وقطع الشارع ودخل عند دنو بيه كمجنون قاطع السلسلة فوقعت في الدكان لحينة المستعارة البالغة قيمتها اربعة واربعين صولديًا فما انتبه لوقوعها بل ما كان ذلك ليوقفهُ عن السعي في الانتقام من خصمهِ في الحب ومناظره وظل يجري حتى وصل الاثنين وتعرَّض بين نانون وكورنبون بينما كان يعلم الفتاة خطوة ضم وقُبَل فلثم المزماريُّ صدر فافوري المشهر عليهِ عصاه الحديدية الناظر لهُ بعينين تتقدان

حقدًا وغمًا فقبضت نانون على ذراعه المرفوع وصاحت به قائلةً

— ويلكَ من شقي . . . ما انتَ عاملٌ

— كفى ما سررت ورقصت مع هذا الوغد الخامل . . . فان يدعك والاَّ كسرتُ بهذه العصا اضلاعه

وكان كورتيون جسورًا باسلاً مقدامًا فامال على الاذن اليسرى قبعته وقبض على قبضة سيفه بيده اليمنى وتأخر الى الوراء خطوتين ثم وقف على روس الاصابع ليتامل خصمهُ جيدًا ويقول لهُ

— من هو الوغد . . . ياعرة الشخصين . . . ويا اكبر المنافقين فهل وهمتَ ان تلقي بهيأتك الخاسرة الرعب في قلبي . . فلعلي تعرضتُ انا الكَ في شأنك حتى تناوئني . . . فاخسأ لاني سأرقص مع نانون الحسناء ما شئتُ وما شاء غرامي

— لا فان ترقص ابدًا

— بل ارقص رغم انفك

فارتفعت الهراوة في الفضاء وطار السيف من غمده فصاحت نانون وبكت فما اصغيا لبكائها فالقت بين المتخاصمين نفسها فدفعاها وجعلت تنتف شعرها فما منعاها فوقعت على

كرسي فما التفتنا اليها ومال الكرسي فسقطت عنه وارتفعت التنورة فبان اا ... فوقف الخصمان يتأملان ذلك المشهد والذهول مستولٍ عليهما ثم قال كورنبون حزينًا

— ليس ذا محل فصل الخطاب بيننا بل سأكون قبل بزوغ شمس الغد بعيداً عن القنطرة في انتظارك

فقال فافوري — انتَ وما تريد

فدنا الخصمان حينئذٍ من نانون ومدداها على تكأةٍ واسرعا بماء وخل فرشا وجهها حتى افاقت من اغمائها وانصرفوا من قاعات دنوبيه جميعًا

والظاهر ان قد لحظت نانون قصد عاشقيها فراحت عند فجر اليوم التالي الى ساحة الموعد في الوقت الذي وصل فافوري وجانجان فيه متسلحين بهراوتين من حديدٍ ليتبارزا بهما

فوقفت نانون بينهما وقالت لهما

— ألا ما اصغيتما لي اولاً ثم تبارزتما اذا بقيتما على البراز مصرَّين فانتما انما تخاصمتما من اجلي اذ قادني الطهر الى طريقٍ شائكة وما كان يليق بي ان ارقص مع عسكري ولا ان اشاغل مشخصًا . . ولا اقصد بما اقول بكما شرًّا فانتما يا سيديَّ مقدامان وقد سيرتكما معطر الارجاء بل انما اسعى بالقلان في

اعادة سابق حسن سيرتي فلقد تخالفت الاقوال فيَّ بسبب تلطفكما بي وعُرفتُ في الحي بهواكما فرضيتَ الان بان اتزوج احدكما على شرط ان تلقيا سلاحكما

فطرح الاثنان سلاحهما وقالا للحسناء بصوتٍ واحدٍ

— لا عاش من يخالف امرك فاقضي ونحنُ بارادتك راضيان

— مهلاً يا سيديَّ وقفا اولاً على الاقدم حذرًا من ان يراكما حرس القنطرة جالسين فيوجسان منكما شرًا . . . فكلاكما رجلٌ جميل لطيف فاتنٌ . . . فواحيرتي في الاختيار . . . بل فليحكم الحظ بيننا فاليكما قطعةً من النقود ألعبا الطفراء والباز بها (١) فمن فاز منكما كان هو زوجي ويرضى الخاسر بما قُسم له ولا يوغر صدره حقدًا

فقال الحبان من بعدها « بحكمك رضينا » واخذ فانوري القطعة ودنا من خصمهِ يسأله عما يختار من الوجهين فقال جانجان

— باز فهو وجه القطعة ولان نانون ستقابل بالوجه

---

١ لعبةٌ معروفة في كل الدنيا و يسميها السوريون الطرّا والنقش وتعرف عند المصريين بالطرّا والباز والطرّا هي الطغرا في قطعة النقود . والباز او النقش هو الوجه الآخر منها

محرق حبي

فطارت القطعة في الفضاء وجثا فافوري وجانجان على الارض ... يفترسانها باعينهما فصاح كورنيبون الرامي « ياز باز » وجرى الى نانون ساجدًا عند قدميها

فاشتعل قلب فافوري بنار اليأس والغيرة الا انهُ تجلد ورضخ لحكم حظهِ رجاء الى المحبين بشهامة الرجل الشريف فقرّب نانون من العسكري عريسها

ثم تعانقوا وعادوا نحو اوكند الكرانسافرتن ليقضوا تلك الصبوة ويتناولون فطورًا شيئًا وما كان الى النهار بعد غير ان اوكندات الكورتيل مفتوحة ابدًا فامر كورنيبون باز بركب على النار حشر قدر ويذبح ثلاثة ارانب وينتف ثلاثة زغاليل وباحضار مقدار من الخمر الجيد وافر واستسلم الكل الى المسرة فبدأ العروسان بوجدان دواعي رقيق الحنو والتقرب فما عكر فافوري صافي حبورهما بل حفظ على الجلد وعده .. غير ان ما كان المسكين قلبٌ من جماد فكلما كان يرى جانجان يلثم وجه نانون تثور النار في قلبهِ ويشعر بضعف عزيمتهِ فيتلاهى بالمشروب عنها اخمادًا لانفاس اوجاعهِ فزاد الخمر لهيب ناره بدلاً من اطفائها وصار يرى الاشياء كلها حبًا وتحبوبًا حتى تحير وما درى سبيلاً

المناص فعزم اخيرًا على ترك المجون السعيد بين وخرج الى المطبخ واشعل منه سيجارةً وراح الى الباب استرواحًا للهواء

وما لبث ان رأى في سكة بلفيل امرأةً تجري بهيئة عطفيه وانفه وقد شمرت بقامة مال الى اذنيها وقارنت بفسطان قصير حتى ركبتها فأثر منظرها في عين الشخص الذي كان بنار الوجد مشتعلاً وصار يتأمل معتدل قوامها وملء جسمها وعينيها الجريئتين اللتين صورهما وهم السكر له ساحرتين سحرًا

فقال في نفسه «هذه والله من نصيبي» وجرى وراء غوستاف الذي تنبه القراء من سابق وصفنا للابسه

فدنا فافوري من غادته الحسناء وقال لها

— اسمعي كلمةً واشربي قدحًا

— خلك في حالك

— لله يا فاتنتي ما احلاك وكم ذا اهواك

— قلت لك خلك يا ثقيل في حالك

— انا اهواك .. وقصدي ان اصرف عليك مبلغًا

— رح في داهيه

فلم يرعوِ فافوري عن غيه واسرع وراء غوستاف فقرصه في جنبه ... فالتفت الفتى اليه واتحفه بكف طيّر

اسنانه

فقال فافوري

— رويدك يا حسناء فما هذي القساوة ... وانما لا بأس منها فلا بد من ان تسلبي ما اريد ... نعم فلقد صممت على ذلك ولا الاعلك « بالياز والطغراء .. » لئلا يقال ان النساء تفلتُ في هذا الصباح من يدي وها انا ذا احملك لئلاً اكون معك كناقب الهواء ..

فحاول غوستاف الدفاع عن نفسهِ فما افلح لان فافوري كان عظيم القامة قويًا يسهل عليهِ حمل ثلاثة من مثلهِ فحمله اذن تحت ذراعه وسار بهِ مسرعًا فصار غوستاف يستغيث فما اعار احد نداه اذ كان الشارع خاويًا فضلاً عن ان ساكني حي الاكورنيل متعودون على مثل هذا الصراخ والامور المغايرة بحيث لا يعير منها سمعًا

وكان الشخص سائرًا مسرعًا يحمل غوستاف بين ذراعيهِ غير ملتفت الى صراخه وتصريحاتهِ وعظيم اقساماتهِ التي تبين لفافوري انهُ في غلطٍ مبين

وبينما كان فافوري يبغي الدخول في زقاق ضيق يؤدي الى داره التقى بفلاحين راكبين حماريهما فسدتا معبر الزقاق عليهِ اذ كانتا متجهتين نحو باريس ببيض ولبن

فلم يرَها لعمى باصرتهِ وانطرح على اول حمار حال دون سبيلهِ فقلب الفلاحة وسقط اللبن على الارض متبددًا فوسع هذا الحادث لغوستاف سبيل التخلص من يدي قناصهِ فنشط واراد الفرار ... فجعل المشخص يجري وراءه حتى حال حمار الفلاحة الاخرى دون مرور غوستاف فجمع صاحبنا قواه ووثب رجاء ان يتجاوز المانع الحائل فساء ما امل اذ ربط النسطان ساقيهِ فوقع فوق البيض وانصرع الحمار فجثا واوقعهُ واوقع راكبته الفلاحة في وسط بحر من بيض مكسور ولبن

فكشف غوستاف حال وقوعه مع الفلاحة والحمار جانبًا من جسمهِ ... وكان ترك لباسهُ على ما يعلم القراء عند دار جيوليا ... فلم يرَ فافوري ما كان يرجو بل رأى بالعكس ما كان يكره فخمدت من ذاك المنظر نار اشواقهِ

واذ ذاك عمد فافوري الى الفرار مسرعًا لينجو من خطر دفع ثمن ما اتلف

ثم تمكنت الفلاحتان من القيام من تحت حماريهما صارختين مستنجدتين سائلتين ضبط السارق وكان قد اختفى فافوري من امامها ولم يبق لديها الاَّ غوستاف لتدفعاه ثمن اللبن المبدد والبيض المكسور . فوقف هو ايضًا ولف

التنانير على جسمه ثم راح يجري نحو القنطرة فتركت الفلاحتان حماريهما والسلال لتلحقا به

وظلّ صاحبنا راكضاً حتى عبر القنطرة وقطع الفوبور متبوعاً من الفلاحتين اللتين كانتا تناديان على عابري السبيل راجيتين ايقاف اللصة المسؤولة بدفع قيمة البيض واللبن فكان المارة يتأملون غوستاف ويضحكون وليس منهم من قام على ايقافه وقد انضم الاولاد الاشقياء الى الفلاحتين رجعلوا يركضون معهما وقد بزغت الشمس وعلت فازداد عدد الجماعة التابعين لغوستاف حتى خاف من ان يدنو احد الغلظاء منه فيوقفه ويجعله هدفاً لسهام الهزء والسخرية من كل الحاضرين فجمع كل قواه وجعل يجري بقوة تفوق الادراك حتى ترك الفلاحتين والطلعين وراءه بمراحل وسار في اول شارع رآه على غير هدىً حتى نزل الى شارع التمبل ثم عرّج على يمينه ونزل ايضاً وانعطف في عطفات كثيرة الى ان اضناه التعب فوقف ودخل دكاناً كانت تفتحه امرأة صبية فانطرح على اول كرسي عثر به قبل ان تتمكن التاجرة المندهشة من ان توجه اليه سؤالاً

*

٨

غلطة · احتفا سوسانيت

وبعد اذ سكن جاش صاحبة الدكان قال غوستاف لها

— واريني يا سيدتي عن اعين هولاء الاشقياء وانقذيني من شر بغيهم

— وانما انا ياسيدتي .. ياسيدي .. لا اعرفك

— فتىً يا سيدتي طائش ... ولا عيب سوى الطيش له فاقبليني في دارك ولا بأس عليك مني

— الله ربي فهذا الصوت ... وهذه المعاني .. نعم هو ... انت هو الموسيو نقولا توبت

— عجبًا ارى مدام هنري الحسناء ... الخردجية في حي دزورس

— نعم انا ياسيدي . . . فيالغريب الصدفة . . . ولكن . . . تلك الفتاة المسكينة . . . فانا مسرعة الى اخبارها

وتركت مدام هنري غوستاف في دكانها وصعدت الى الدور الاول حيث تنام مع الفتاة التي سلمت اليها فيه وما كانت سوسانيت عند مدام هنري الاً من امس المساء الاّ ان القلوب الحزينة تواسي وتفهم بعضها وكانت الخردجية في سنٍ وذات حسن يجذب القلوب الى محبتها ويدل على انة يجب ان تكون على ذلاتِ الحب حليمة . وما كانت سوسانيت لتفتكر بمثل ذلك وانما جعلت بعد ذهاب الميرالاي وكوابتو تتأمل مدام هنري صامتةً ثم اخذت في البكاء فرق قلب الخردجية لها وجعلت تعزيها وتسأل عن اسباب حزنها واصل مصابها بصوتٍ حنونٍ وكلماتٍ حلوةٍ ولدت عند سوسانيت حسن الثقة بها ولا يخفي ان ذكر الحبيب حال البعاد فهو تعزية للفؤاد فروت سوسانيت لمدام هنري عن كل احزانها بكل بساطةٍ

فرثت مدام هنري لحالها غير انها استغربت امر كرهها لنقولا توبت الذي كانت تأبى زواجه وقالت

— وانما انا اعرف الموسيو نقولا فقد وجدتُ في فيليث معهُ وكنا في عرسٍ عظيم

— واما رأيتهِ اهله متوحشاً شنيعاً

— بل بالعكس انهُ فتىً لطيف نبيه يرقص مثل ريشةٍ . . .

— نقولا . . . ويلاه فهو ما كان يعرف ان ينقل رجلهُ . . . لانهُ اعرج . . . لا يخطو الاَّ بصعوبة

— انتِ تمزحين فأنهُ كان اخف راقصي الفرح

— انهُ لأ بلد من سلحفاةٍ

— بليد . . . نقولا . . . ابدًا ابدًا فلقد اخمد انفاس نجار كان تحرش بهِ . . . ولو تركوه وما يريد لضرب كل المدعوين

— لا بدع ان يكون تغير عمَّا اعرفهُ منهُ . . . ولكن هل انت متاكدةٌ من انك رأيتِ نقولا بعينهِ

— لا ريب في ذلك فهو نقولا توبت من ارمنونفيل خطيب سوسانيت بنت الموسيو لوكس . . .

— ويلاه فهو هو بعينهِ وإنما حاشا من ان يتزوجني . . . فالموت احرى من ان اصبح لهُ زوجةً . . .

— وانا لست من رأيك بل لو احبني لتزوجتهُ مفعمة القلب سروراً . . .

— آه لو كنتِ تعرفين يا سيدتي غوستاف ابن اخت الميرالاي مورنفال لتري الفرق الكائن بينهُ وبين ذلك

الاعرج نقولا

— لم ارَ ابن اخت الميرالاي ابدًا ولا بدع في ان يكون جميلاً لطيفًا على ان ذلك لا يدعو الى القول بان نقولا شنيع

وظلت انظار المرائتين في الظاهر على طرفي نقيض وان كانت مدام هنري في حقيقة الامر من رأي سوسانيت على انها كانتا تجهلان اعمال غوستاف وفلتاته ولقد سكن جاش سوسانيت بعد حكاية حالما فوعدت مدام هنري بان تتبع في كل شيء نصحها وبان تكون عاقلةً مطيعةً. وتبادلتا الاقسام على حب يدوم وثقة تامة واخذت سوسانيت تجتهد في تقوية قلبها وقواها معتمدةً على وعد الميرالاي الذي قال لها انها سوف ترى غوستاف على انها قضت تلك الليلة بلوعة التذكار وذرف الدموع لانها كانت اول ليلة نامت بها بعيدةً عن غوستاف من بعد هربها من ارمنونفيل ولكم طالت تلك الليلة عليها جريًا على ما يشعر المحبون به من طول الوقت الذي قاسونه حال البعد عن المحبوب

ولقد سمعت مدام هنري بكاء المسكينة في الليل وشهيقها فقامت لما اصبح الصباح تسيرُ بخفة لئلا توقظ الفتاة التي غلب التعب على ضعيف قواها فاستسلمت الى قائد النوم . ونزلت

خفة ونزلت على سلم سري يؤدي الى فسحة الدار ثم خرجت الى الشارع وجعلت تجري في الناحية المتوارية عن الدكان حاملة بقجتها الصغيرة تحت ابطها غير عالمة الى اين تعدو لتأمن لقاء نقولا ..

وكان غوستاف يستريح في الدكان بدون ان يشك بقرب سوسانيت منهُ ورأى تشتت شمل اللاحقين لهُ بسرور ما عليهِ من مزيد اذ ما عادوا اهتدوا اليهِ حتى عادت مدام هنري الى دكانها فقال لها

— اسألك ياسيدتي ان تتفضلي باعطائي ثياب رجل لانني لا استطيع بهاته الثياب بقاء

فقالت مدام هنري لهُ — كنت اود القيام بهاته الخدمة غير انني صبيةٌ احترس على شرف اسمي فماذا عسى عني يقال بين الجيران اذا رحت اشتري او استقرض ثياب رجلٍ فضلاً عن انني لا اظن بانك تريد ان تغير اللبس في مخزني

— اما فيهِ خزنةٌ

— نعم . وانما هي مكشوفة من هنا ويحتمل دخول الناس في كل لحظةٍ فما ابدع ما ينظرون ..

— والا تنامين في حجرةٍ اخرى

ــ يستحيل عليك دخولها اذ يوجد في نفس دوري جيرانٌ سفهاء فربما يرونك ... وماذا عساهم ان يقولوا

ــ فتريدين اذن يا سيدتي ان اذهب بهاته الثياب المضحكة ليجري كل الهمّل ورائي ويخاطبون ..

ــ غير انني اسألك اولاً لماذا لبست هاته الثياب

ــ هي الحوادث يا سيدتي تحكم على ارادتنا ... فانما نحنُ بيد القضاء لعبةٌ تديرها الاقدار كريشةٍ طاردتها الاهواء فيخرج الواحد منا من بيتهِ قصد الذهاب الى الغذاء فيجد صديقهُ ميتاً و يضطر بالعكس الى مرافقتهِ الى التربة . ويذهب غيره الى ليلةٍ راقصةٍ واقصة فتقع من السقف حال خروجه طوبةٌ تكسر دماغه فينقل ايضاً الى داره حيث يبدل الرقص بالنوم على السرير . و يفكر ثالث في تمضية ليلتهِ بعشرة اناس ظرفاء فيخرج متزيناً مطيباً بالعطورات الزكية فتصادفه في السكة عربة تلوث بالوحل ثيابهُ فيلجأ الى الرجوع الى داره ليغير ملابسه فيجد زوجتهُ التي ما كانت في انتظار رجوعه جالسة مع ابن عم لها تلعب الورق ... وهو لا يحب الورق ويكره ابن العم ايضاً فيصيح ويزعل حتى يستلم ابن العم طريق الباب فتخاصم المرأة زوجها وتعاتبهُ على غيرته راميةً اياه بالظلم وبالوحشية ثم تصاب « بالعصبي ... » فيقضي

على زوجها المسكين بالاسراع الى الاجزاخانة لمشترى المنبهات وماء زهر البرذقان ويعود اليها ليمضي الليلة ساهرًا عندها بينما كان يحسب ان يمضيها عند اصحابه . . . فسيدي يا سيدتي بعد ذلك في الهواء قصورًا . . وانا انا فاؤكد لك انني ما كنت لانتظر حال خروجي بالامس من بيتي ان اعود بثياب امرأة غير ان النار قد احرقت ملابسي واني وان لم اجد بهاته الثياب كاملاً الا انها افضل من ان اسير في الشوارع عريان . . ولقد اضطرني الاحتياج الى كسر عزة نفسي وكبريائي فهذا هو سبب ظهوري بالمسخرة وان لم نكن في ايام المرافع . فهل ما زلت تريني بالعتب واللام حقيقًا

— نعم . . . وانا اقل من قبل . . . وعليه فما انت آتٍ من ارمنونفيل اذن

— من ارمنونفيل . . . وما تريدين ان اعمل فيها

— السيدة اليوم في دار لوكس . .

— في دار لوكس . . . لقد فهمت الان غلطك ويجب ان اعرفي الحقيقة . . . فاعلمي بانني قط ما صرت نقولا نوبت

— عجبًا فما انت يا سيدي . . .

— لا يا سيدتي فقد اتخذت ذلك الاسم حذرًا من ان

اعرف في العرس الذي قادني لدرو اليه ...

— اتقول حقًا . . وهل صح ما قالته سوسانيت لي من ان تقولا توبت ...

— آه . . سوسانيت . . . آه . . . فهل عرفتها عزيزتي

— نعم اعرفها حسناء جميلة غضةً لطيفةً

— رحماك يا سيدتي . . . قولي لي اين هي وهل رأيتها او تعلمين محل سجنها .

— يا الله . . . من عظيم اهتمامك . . . ومن اشتعالك . . . فمن تكون حضرتك اذا لم تكن تيقولا

— انا ذاك الذي ضحت سوسانيت كل شيء من اجله . ذاك الذي هجرت حبًا به الوطن والاهل والاحباب . . . انا غوستاف ابن اخت المير الاي مورنفال

— حضرتك غوستاف . . . ويلاه من غباوتي فكان يجب ان احزر ذلك

— عسى ان تكون سوسانيت في دارك . . . نعم . . . فانما ذلك ظاهرٌ من وجهك بادٍ في حيرتك . . . فانت تخشين ملام خالي او سمعت لي بحادثها . . . غير اني اعدك بانه لا يعلم ذلك . . . فمتعيني برآها مدة خمس دقائق فقط . . . ثم اسيرُ حالاً

— ارى ان لا بد من اجابة مرغوبك لئلا تأتي بمشكلةٍ أخري فانتظرني هنا . . . فانا ذاهبةٌ لاحضارها

وصعدت الى الحجرة حيث عظم اندهاشها اذ لم ترَ سوسانيت فيها فجرت في الغرفة مناديةً سائلةً من الجيران على غير جدوى فان الفتاة كانت عن هناك بعيدة فعادت الخردجية الى الدكان تقول لغوستاف حزينةً آيسةً

— ويلاهُ . . . فهذه مصيبةٌ أُخرى . . . ان سوسانيت اختفت وابعدت عن بيتي . . .

— اختفت . . . ويلاهُ . . . ومن حين وجودي في دكانك فقط

— نعم ولقد علمت الان سرّ هربها فانني طلعت حال وصولك اشعرتها بمجيء نقولا توبت فظنت المسكينة انهُ آتٍ في طلبها وهربت لكي لا ترجع مع ذلك الرجل الذي تكرهُ

— مسكينة سوسانيت . . . فانا سبب مصابك ايضًا . . . فاين هي يا ترى . . . لا نقود معها . . . ولا وسائل للحياة . . . في مدينة لا تعرفها فماذا يجري عليها

— تعزَّ يا مسيو غوستاف فلسوف ترجع واعدك بانني اعلمك برجوعها

— تقبل الله دعاك ... فتنازلي لان تأتيني بعربة ...
فانا ذاهبٌ الى بيتي

— وماذا يقول خالك حين يراك بهاته الثياب

— يصيح ويزعق ولكن ينتهي بالسكوت والرضى ومتى
غيرت ملابسي اعد الى التفتيش على سوسانيت ... واراهن
بعن كل عربات المدينة لا تتمكن من هدايتي الى سبيل
وجودها

فاتت مدام هنري بالعربة واخذها غوستاف بها ثم
شكر الخرجية اللطيفة وامر السائق باخذه الى دار خاله

*

٩

مشروع زواج

نزل غوستاف في فسحة القصر وامر البواب بدفع اجرة العربة وسار الى حجرته مسرعًا وقد ترك المبروك واباه ازاء العربة باهتين لان غياب غوستاف من منذ الامس ورجوعه بثياب مغيرة ولد عند الخادمين تآويل وافكارًا جديدة بحيث ما وقف البواب لمحاسبة العربجي حتى اسرع ابنه الى الميرالاي يعلمه برجوع ابن اخيه مرتديًا بثوب امرأة مشقق ممزق معنًا بكمية ملوثة بصبغة بيض احمر

وما كان الميرالاي بعد رأى غوستاف من منذ وجود سوسانية في حجرته فلم يشك في كونه انما قضى الليل سعيًا في التفتيش على الفلاحة الفتاة فاعدّ له عظةً قاسيةً

ظن بها الكفاءة لرد غوستاف الى طريق سويّ . غير انهُ غيور لما بلغهُ خبر رجوعه بزي النساء وما درى ماذا يقول وصعد الى حجرة غوستاف بنية توجيه سهام الملام الى عانب مسراه . فرآه في السرير نائماً بدلاً من اتمام ما كان ينويه من ان يقضي النهار في التفتيش على سرسانيت اذ قضى سوء الحظ بان لا يتم ما نوى لان داوَ ماء البستاني ونبيه الحقول وفسطار التفتاء والجري المضنك من قنطرة بلنيل لحد شاع دزورس كل ذلك اضعف قوى فتانا الذي ما كان من ابطال الخرافة المنصورين غير المقهورين فسمع اذاً موعظة خالو بدون ٠ة اطعنو لان الحمى كانت اضاعت رشده ولان ضعف اجسادنا معرضٌ للعطب السريع بحيث ان العقل الاشد قوة لا يكاد يتمكن من حفظ ذات عظمتهِ عندما يكون الجسم بالامراض مصاباً

فلحظ الميرالاي حال ابن اخيهِ ونسي شديد غضبه ثم امر باستدعاء حكيم جاء بعد ساعةٍ فزار غوستاف وجس نبضه ورأى لسانه وفحص بوله ونطق خلاصةَ فحصهِ بكل جدٍ قائلاً انهُ سيعرف في الغدا ضرب العياء الذي ما كان ظهوره بعيداً

ولقد بدا المرض في الغد للحكيم فعلاً فقال للميرالاي

انها نزلت على صدره فعظم يأس الخال لشديد حبه لابن اخته رغمًا عن قساوة بلاءه فقال للطبيب انه يقتل نفسه لو أصيب غوستاف بمكروه فحياه الطبيب منصرفًا وما عاد وضع في القصر رجاء لئلا يكون لانتحار الميرالاي سببًا

فدعا الموسيو دورنفال جملة اطباء غيره بحيث لم يبق في دار الطب حكيمًا حتى نجا غوستاف بعد ستة اسابيع قضاها بخطر عظيم شديد . ثم طالت مدة النقه عليه وما كاد يتمكن من استجماع قوى داكرته واجالة طرفه في مدى الحجر حتى تذكر سوسانيت حالاً وقال لمبروك انه يتوق الى محادثة خاله

فاسرع الميرالاي الى اجابة طلب ابن اخته واتى اليه يضمه بذراعيه قائلاً له

— ها قد نجوت والحمد لله

— نعم سيدي ولكن حدثني عنها ماذا جرى على تلك المسكينة . . .

— من هي هذه المسكينة . . .

— هي يا سيدي الخال سوسانيت تلك الفتاة الطيبة التي كانت في حجرتي واخذتها انت منها حيث انزلتها في دار تاجرة . فلقد هربت من عند مدام هنري لانها ظننى

قولا توبت . . فاذا عساه جرى عليها في هاته المدينة الواسعة . . .

— وحبك ن ذلك احزنني اضعاف حزنك و بالاخص لاننا لم نهتد الى محل هربها وانما ما كنت انا المذنب في كل حال وعسى نوادرك ما زال يهوى هاته الفلاحة مولعًا

— نعم سيدي بل اشد من ذي ولوعًا

— ومدام دي فونيل

— هي زينة الحسان ولكنها لا تحبني . وهل استنبأت عن صحتي اثناء غابي

— نعم ومرارًا

— آه . فلو علمت سوسانيت ذلك لاسرعت في اثرانى ولعتني بي

— ألا انا نسيت الان سوسانيت انتي ما عادة تفكر بك وكرست افكارك لا وجبنيا الحسنا

— ما انصتها يا سيدي فهي اود من ان تنساني

— ألم تقل ان الحب ينسخه البعاد

— نعم . متى كان حبًا خفيفًا

— وتقول ان لا ثبات عند النساء . . .

— الباريسيات نعم . . . وما سوسانيت من باريس

— ولعلك تزينت بزيّ النساء ... بالتفتيش عليها

— ان مرض سنة اسابيع يا سيدي يفسح الافتكار مجالاً واسعاً .. فلقد فكرتُ وقابلتُ بين من عرفتُ من النساء فرأيت سوسانيت انبل من الجميع قصداً واطيب منهنّ قلباً واعظمهنّ حبّاً

— ولو كانت سوسانيت في حوزتك لما حال ذلك دون ان تخونك من بعد شهر واحد

— انا لا اقر بهذا ابداً

— وانا على يقين منه . فافتكر الآن في الشفاء واذا رشدتَ بعد ذلك حقيقةً .. تترك سابق طيشك وتتخذ لك امرأة تصونك من خطر الوقوع في مثله

وقام الميرالاي بعد ذلك من حجرة غوستاف الذي كان يتقدم الى العافية رويداً وكانت مدام دي فونبلّ تستنبئه كل يوم عن صحته فتأثر غوستاف من رقيق عنايتها ووسعَ لها في ذاكرته بجانب سوسانيت مقاماً رحيباً

ونقه غوستاف من مرضه تماماً فتمكن من الخروج وجعل زيارته الاولى لمدام هنري فدخل الدكان وسألها

— اما عدتِ رأيت سوسانيت

— ويلاهُ كيف تغيرتَ يا سيدي

— جاوبي يا سيدتي على سؤالي فهل علمتِ ماذا جرى على سوسانيت

— لا يا سيدي فمن يوم جئتَ بثياب النساء عندي ما عدتُ رأيتها

— لهفي على المسكينة فاين عساها ان تكون

— لعلها عائدة الى اهلها

— فليستجب منك ربي . . . وماذا قال لك خالي

— اشتعل غيظًا وتمًا ولامني كأن . . . فاعلمتهُ الحقيقة حتى علم ان لا ذنب لي فيما جرى . .

فخرج غوستاف من بيت مدام هنري والحزن ملءُ فؤاده واليأس مستولٍ على رشادهِ وراح الى مدام دي فوبلس التي اعربت لهُ عن عظيم سرورها من زيارتهِ وتمام سلامته مظهرةً لهُ اعظم ودٍ واعتناء فرآها اشد مما عهدها فتنةً ورقةً وعاد الى الدار وهو يتفكر في اطيف عزم للبرالاي

وفيما هو ينزل من العربة ليدخل الدار رأى البواب مختصما مع ماسح احذية . بوبجي . صغير السن بين الرابعة والخامسة عشر وضع على باب القصر صندوقه فسال غوستاف البواب عما عمل الفتى معهُ فقال

— جلس يا سيدي على باب المرور بصندوق دهانه «بوية» . . . فلوث العتبة التي نرى الذل في تنظيفها . . . وقد اتى يوسخ البلاط غير راحم . . . فالا ما نظرت الى سواد لونه فالظاهر انه غير راض بمسح الاحذية فقط فراح ينظف المداخن ايضاً

فاطرق الفتى ولم يفتح فمه بجواب فحزن غوستاف عليه وقال للبواب

— لمَ تطرد هذا الفتى فهو انما يسعى على عيشه وان السبيل حرّ للعابرين . . . فانا اريد ان تدعه يجلس هنا

— ولكن ياسيدي

— صه

ثم اتجه الى الفتى وقال

— خذ ياولدي فهذا لك وانني اوليك عنايتي

قال ذلك واعطاه ريالاً وانصرف تاركاً البويجي مسروراً والبواب في كيد عظيم

وكان صاحبنا يسترد في كل يوم قوته ونشاطه وحرارة حبه . وكانت اوجينيا موضوع آماله وامانيه يقضي بقربها كل اوقاته معرباً لها عن غرامه وهي تقابله بمثل حبه الا انها لم

تسمعه بنعمة أخرى بل كانت تبدي له غيظها كلما رأته خفيفًا . و رأى غوستاف ضرورة هجر سابق عشرته ارضاء لاوجينا فما عاد يرى ليزبيث ولا اوليفيه وما عاد يخون واجباته ولا يأتي طيشًا منقادًا بذلك الى اقتراحات اوجينيا حبيبته . وما كانت هذه الشروط لنفسه على غيره وانما كان يرى المسكين فيها صعوبة لمباينتها ما اعتاد عليه ومع ذلك فقد اقسم لها بحفظ وعوده والقيام بعهوده .

وكان يقول احيانًا حين عوده الى داره « ان هاته الحسناء كثيرة التطالب والتحكم فلقد غضبت هذا المساء عليَّ لانني حادثت امرأة أخرى بينما كانت هي مشتغلةً بالموسيقى واما يستحيل عليَّ الوقوف امام الحسان جامدًا صامتًا حذرًا من ان يحسبني غبيًا او متفاخرًا . . . فان اوجينيا غيورةٌ . . . غير ان غيرتها دليل على حبها فلا بد من العفو عنها ومسامحتها

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ

جاءت محاسنه بالف شفيعِ

وكان سرور الميرالاي باهتداء ابن اخته عظيماً فقد رأى اهتمام غوستاف بشأن الزواج الذي تحدد وقته وما كانت الاستعدادات سريةً لان غوستاف كان يرافق مدام دي فونبلن في كل مكان

وما كان يعود غوستاف في كل يوم الى دارء الا ويرى بو بجيه الصغير الذي كان يحبه برفقة ووقار ولا ينسحب الا بعد ان يراه للقصر داخلاً

وما دنا ميعاد الزواج الذي لم يبقَ له الاّ ثلاثة اسابيع حتى غدا الميرالاي بعد لسعادة الزوجين العتيدة مشروعات جميلة بالاشتراك مع الموسيو جرانسيير وجعلت اوجينيا تفصل وتعدُّ ملبوساتها وزينتها بينا كان غوستاف يتنهد متضجراً من بطيء سير الزمان فان في ثلاثة اسابيع يحتمل وقوع حوادث جمة

*

*

١٠

مكائد نسوانية · غيرة · مقابلات مشومة

وبينما كان غوستاف في صبحة احد الايام عند اوجينيا قالت له

ـ سترافقني الليلة الى بيت مدام سانكلر فان عندها سهرة جامعة والكل متشوق الى سماع صوتك

ـ سبحان الله · فانني لا اطيق هذه المدام التي تغرق في بحور نصاحتها في اظهار عظيم مودتها ومظاهر ميلها بتخيلات لا نهاية لها وعساك تعتقدين بصدق ولائها وحقيقة مقالها

ـ انت يا مسيو غوستاف تدري بانني لا اعول في المعاشرات الاّ على اسباب سرورها فليست مدام سنكلر

لديّ الاّ صديقة بسيطة غير ان اجتماعاتها زاهرة زاهية ..
تنفي الشجون وتسلي المكروب بعكس الاجتماعات العظيمة .
لانك لا ترى في بيتها تلك العوائد والرسوم القاسية المذلة
للسرور والمقصية للحبور فتعالَ يا غوستاف اكرامًا لخاطرك ولاجلي

ـ انت يا اوجينيا عالمة بانني عبدك المطيع

ـ نعم ما دمنا محبين وانما متى تزوجنا اكون انا خاضعة
لاوامرك فانني ادرى بهذا . وكلما تصورت هذا التغيير
الذي يحدثه الزواج في اخلاق الرجال ارتعش سلفًا . . . فيجب
يا حبيبي ان نبقى محبين وان لا نتزوج

ـ ما هذه المخاوف فانت تعلمين عظيم حبي لك فهل
تتوهمين امكان تغيري

ـ بل اتيقنه فاني انا راضية بحالتي الحاضرة ولماذا لا نظل
على ما نحن الآن عليه

ـ لا والله . . . الاّ اذا خولتني حقوق الزوج كلها . .

ـ اواه فانا يا مسيو غوستاف اعلم فلا تقدر انت امكانه
فان ما يخول للازواج من التسلط والامتيازات هو الذي يضعف
الحب غالبًا من قلوبهم وينفي السرور عن ربوعهم . . فلو
كان الامر بعكس ذلك وحرم على الزوج لتمتع بحقوق العاشق
لحفظ القران لذاذات الايام الاولى حتى الى زمن طويل

ـ ولكنك لاتقسين ياحبيبتي اوجبها الى حد ان تلجئيني الى اتباع نصحك فلا بد من ان تصبحي اما حليلتي واما خليلتي

ـ قد يحدث ان لايحب الرجل لا الواحدة ولا الاخرى فانما تؤخذ الخليلة اتباعًا لعادة . وتؤخذ الحلية اضطرارًا ولا امل الاّ للصديقة بان ترى بالبشر والايناس دائمًا . وعليه فمنتهى ما اشتهي هو ان أكون للمسيو غوستاف صديقة وانما انا احبه حبًا صادقًا . وتلك خسارة كبيرة اذ قلّ ما نرى بين شخصين مختلفي الجنس ارتباط وداد بحت الاّ اذا كانت حالة ذلك الارتباط توطئة لاتصالات فوأدية احن من الوداد واخفى وانما ساصبح انا يامسيو غوستاف زوجتك فلا ارى من اعلالك بكم في غيورة بدًا . . ولا اطيق ان ينقلب شديد الحب منك على عجل ودادًا . . واخشى وحقك ان اكون لمصابك سببًا . فكلما دنت ساعة الاقتران اشعر بتعاظم افتراحاتي وتتبرر جنا وفي

ـ غير انك طيبة القلب ولا اظنك تصبحين رديئةً

ـ لا . بل ربما احبك يامسيو غوستاف كثيرًا وهذه نكبة كبرى فآه كم من نساء ما كان لهنّ عند ازواجهن ياحبيبي الاّ هذا العيب عيب الحب

— واذا لا اكون انا مثل هؤلاء الازواج

— فانا ذاهبة اذًا الان لاعداد زينتي وملابسي على امل ان نرى في هذا المساء بعضنا

فعاد غوستاف الى الدار مفكرًا فيما قالته اوجهنيالله . متيقنًا باستحالة انقطاعه عن حبها غير جازع من ان يكون لتعاستها سببًا — واذا رأى انه صار على عزم ان يتزوج . . يتزوج هو الذي طالما رأى الزواج شيئًا غريبًا . . يرشق الازواج بنبال حاد كلامه ويلعب عليهم ادوارًا هائلة ويعظم كبير مصابهم . . فهو الان يسعى في التسمي باسم الزوج الذي طالما هزاء به وازدرى . فآلمت هاته الافكار رأس فتانا الذي يعد ان اجزع كثيرين غدا الان على حال جزوع واحزنته الاية القائلة الحق في «بمثل ما تكيلون يكال لكم» لان لفظ الآية الشريفة شاملٌ ومعناه الحقيقي قائلٌ — لا تفعل مع الغير ما لا تريد ان يفعل الغير معك — ونرى كثيرين من الشعوب وبالاخص المتوحشة لاتعمل بغير هاته الشريعة جعلتها للخاطئين حدودًا وهي بعمر الحق شريعةٌ حكيمةٌ حريةٌ بان يسير على حدها المتمدنون

فما وصل غوستاف للدار اذا الا مستسلمًا الى عوامل افكار محزنة فرأى امام الباب البوهيمي الصغير جالسًا على

مصطبةٍ مغطياً بيد بل عينيه تدلُّ هيأته على شديد مقاساته وعظيم حزنه

فتأثر غوستاف وسأل الفتى عما به متودداً متلطفاً فلم يجبهُ الوصيفُ بشيءٍ وظل يتنهنهُ في البكاء حزيناً

فتعرض المبروك لمولاه وقال

— ان شئت ياسيدي قلتُ انا لك ما به فأنني كنتُ انزوي مع ابي في عنيد زواجك ... وافراحك ... وعروسك .. والا لاد التي سوف نرزق ... وجميل الملابس التي ستتزين في ذلك اليوم بها ...

— عجباً انتزاوي مع ابيك في كل ذلك

— نعم سيدي .. لانهُ نظراً لرغبتي في اكرام حضرتك اود ان اشتري سيفاً اعلقهُ على جنبي حين ارافقك الى الكنيسة .. ورجاءي ان تسمح لي بشترى ...

— خلصني يامبروك من غباوتك ... واحذر من حمل الحسام

— ومن عزم ابي ان يقطع في يوم العرس ذيله (١) ...
«ويضرب نفسهُ بويه .. » فانت ياسيدي تعلم ان لهُ

١ الذيل ... زيٌّ لضفر الغدائر عند الافرنج فمقصود المبروك ان اباه نوى على قص غديرة شعره متلاعباً بالمعنيين امتحاناً

الان اجنحة زغاليل ...

— أنصبت ام لا

— امرك يا مولاي ... فما عدت احكي .. قلتُ اننا كنا نتراوى في الملابس التي ستر تدي يوم العرس فما فدنا هذا البويجي منا لا كنفة وساًلنا عمن يروم الزواج . و سمع اسم حضرتك حتى علا الاصفرار وجهه .. ثم عاودته الحمرة ... ثم الصفرة ... وكان اسود اللون في كل حال ... الا انني آنست من خلال سواده تغير الوانه . وغدا من ذلك الحين يبكي كما تراه حتى الان حزيناً وانما عرفت سر اشجانه فهو يخشى من ان ترضى سيدتي عروس ببقائه هنا لانه في منتهى الشناعة ...

— مبروك كفى ...

— مولاي امرك .

وسار المبروك لا عناً البويجي الذي يحول دائماً دون نفعه لان غوستاف كان يستخدم الفتى في حاجاته لشدة ذكائه وفرط اسراعه بعكس الخدام البليد وكان البويجي يفهم ما يقول غوستاف له ولو انه ما كان يسمع عداة اوامر الا مطرقاً لا يفوه ببنت شفة

فاشار غوستاف الى الفتى بالحاقه الى الفسحة وقال له

— قل يا حبيبي سبب احزانك لي فعساك تخشى من ان يطردوك من محلك فكن في راحةٍ اذ لا بد لي من ان اخذك معي متى اتخذت دارًا مخصوصة وستكون مقدمي اذا كنت ترضى

فلم يرفع البوجي رأسهُ ولم يجب بكلمةٍ . بل اخذ يد غوستاف فلثمها لثماتٍ عديدةً . ثم سار في حال سبيلهِ . فلبث غوستاف متأثرًا غير عالم سرّ الحزن والتأثر الذي يظهرهما الفتى المسكين لهُ على ان افتكاره باوجينيا وبعرسهِ طرد البوجي المسكين من بالهِ

ولما جاء المساء سار غوستاف الى دار اوجينيا وحده لعدم رغبة الميرالاي في الخروج نظراً لثوران النقرس عليه . ثم ذهب معها ومع ابيها الى دار مدام دي سانكلر . وكانت القاعة بالمدعوين غاصةً فقوبل غوستاف فيها بكل رقةٍ وايناس وانما بدا لفتانا انهُ يرى في عينَي مدام دي سانكلر فرحًا شيطانيًا . لان هاته السيدة كانت تتوق الى ان يغازلها الشبان رغمًا عن قليل جمالها . وقد استعملت في اجتماعات المسيو دي جرانسيير الف رقةٍ ودهاء واعتناء بغوستاف الذي فهم بسهولةٍ مرادها ولم يعرها جانب الالتفات لعدم موافقتها لذوقهِ . وانما كان يحذرها اذ يسهل على النساء

مسامحة من يغازلهنَّ ولا يجبهنَّ وانما لا يطقنَ ان لا يجاوب على حبهنَّ الذي يسعين في تشديد دعائمهِ

وكانت الانوار اللامعة والملابس الشائقة وآلات الطرب تكسب الحفلة هيأة الاعياد فجعل غوستاف يتأمل النساء الجالسات في القاعة حذرًا من ان يرى فيها بعض من فتن رغوى لانهُ كان يعلم غيرة اوجينيا ويود ان يبعد كل الاسباب التي من شأنها ان تكدرها فلم يرَ لحسن حظهِ ولا واحدةً ممن كان لهُ معهنَّ علائق حبية فاطمأن بالهُ .

وكانت اوجينيا معروفةً برخامة الصوت فرجاها الحضور ان تغني فسارت الى البيانو . وسار غوستاف الذي ما كان يحق لهُ بعد مرافقتها الى كرسي رآه خاليًا بين ارملةٍ وربةٍ وامرأةٍ ببرنيطةٍ عملت بنوع ان تكاد تغطي وجهها فلحظت اوجينيا محل ما جلس غوستاف ورآها فابتسم لها برقةٍ وقال في نفسهِ « لا بد من ان تكون صاحبة البرنيطة الكبيرة شنيعة ما دام اوجينيا لم تميز حنقًا »

فجعلت اوجينيا تغني ووجه غوستاف لجارتهِ بعض كلمات لا معنى لها من مثل الجمل التي يتبادلها الناس في الاجتماعات عادةً والتي لا تولي الفكر نصبًا ولا القلب تعبًا . فما اجابت المرأة المتبرنطة عليها ولا اعارتها سمعًا

فقال غوستاف في نفسهِ

— عجبًا لهاته السيدة لا تجيب ومن عادة الاجتماعات ان يجاب على ما يوجه من الاسئلة الينا . وما اخالني قلت لها شيئًا يهينها . . . فعساها ان تكون صماء . . . فقدت حاسة سمعها

ثم احنى رأسه قليلاً ليرى من تحت البرنيطة فالفاها صبية غير حسناء فان في وجهها حبوبًا وبثورًا وعليهِ آثار قروح وجراح . فادار غوستاف وجهه بنية ان لا يعود الى توجيه الخطاب الى الجارة الساكتة واذا بصوت مملوء حنوًا وحلاوةً معروفًا منه جيدًا يقول له صادرًا من تحت الرنيطة

— ويلاهُ يا غوستاف أَفما عرفتني

فنفذت هاته الكلمات الى قلب غوستاف فالتفت بلهفة وهمّ على الصراخ فاوقفه نفس الصوت قائلاً

— تعقل يا غوستاف فان العيون لبالمرصاد لنا

— رباهُ أَفي يقظة انا ام في منام فانت العزيزة جيوليا

— نعم انا . . . انا جيوليا بذاتي وان كنت صرتُ في حالة يستحيل معها معرفتي .

— عفوًا حبيبتي عفوًا

ــ وعلامَ اسامحك فما حقدت قط عليك يا غوستاف وما الذي يدعوني الى كرهك

ــ واي مصيبة حلت . . بل اي مرض طرأ عليك

ــ ليس العياء سبب علتي فانت تذكر تلك الليلة المشؤمة التي قاسيت فيها لاخراجك من بيت بنت سلفي اهوالاً . . وقد توفقت في ذلك . . غير انه ما كان معك استرتك ثياب وكبَّ البستاني كلَّ ماء الدلو على ظهرك . . . فعدت الى الحجرة لانتشال ثيابك فاخذتها واسرعت للحاق بك . . فاختنقت بالدخان واضعت الرشد والصواب فاحترقت شعوري . . ثم نجوت من انياب الموت . . . وانما ما عدت غادة الامس

ــ أكان مصابك يا حياتي جيوليا اذًا من اجلي فتعسًا لي كم سببت من العناء لك

ــ لستُ اتذمر يا حبيبي . . فانني قد اذنبتُ وكان من العدل ان اكفر عن سيئتي . . .

ــ كم من نساء هنَّ اعظم منك يا حبيبتي وزرًا ولا يقاسين اقل عنا . . .

ــ وقد خسرت ولا اسفاه حبك . . . غير اني ارجو بقاء دك . . .

— روحي فداؤك ما حييت فانت العزيزة التي بذلت في سبيلي كل نفيس .

— فابن لي منذ الان على الوفاء دليلاً

— مري

— ما زلت امني النفس بحفظ ما بقي من الخير لي ولا يتم ذلك الاّ بعدم تكدير راحة زوجي الذي لا يلبث ان يجيء

— هنا ...

— نعم ... وهو لم يقابلك منذ يوم نحسنا ... فانا يا غوستاف قلقة جدًّا لافتكاري بخطر مقابلتكما .. واتوسل اليك ان تكفيني مؤنة هذا العذاب منعًا لما عسى ان يستنتج اللؤماء ممَّا ربما يصدر عن دبرلي لدى رؤيتك .. فقد اكتشفتُ الان على الفخ المنصوب لي . فان مدام دي سنكلر تعرف المسيو دجاردن ولا يبعد ان تكون علمت منهُ انك كنت تأتي من قبل اليَّ

— اصبتِ .. فلا بد من ان تكون كادت لنا مكيدة عظمى ولا ارى لاجتنابها الاّ سبيلاً واحداً سبيل ترك المقام فها انا ذاهبٌ على عجل

— روحي يا حبيبي فداؤك وهذه منةٌ لا انساها لك

عمري . لانني اعلم انك جئت هنا مع المرأة التي سوف تتزوجها وانهُ يشق عليك تركها . . . وانما ستكون هذه الضحية آخر ضحاياك لي فتجد من ثمَّ اوجينيا عروسك غير انك ستفقد جيوليا ابداً

— آه يا عزيزتي جيوليا لو أُسعدت بان اضحي من اجلك شيئاً يستحق الذكر لاعرب الك عن استئهالي حبك . . . فالوداع الوداع لانني سائرٌ من هنا على امل ان يجمعنا الحظ في غير هذا المكان فنكون حُرين نستسلم الى عوامل حنون قلبينا ولا نخشى عذولاً ولا رقيباً

قال غوستاف ذلك وقبض على يد جيوليا بحنو زائد واتجه نحو الباب ليخرج من القاعة فاعترضته مدام دي سانكلر التي كانت منتبهة لكل حركاتهِ وقالت لهُ

— لا اسمح لك بالذهاب ابداً . .

فسمعت اوجينيا هذا الحديث ولحظت سرَّ الامر فانزعجت وصارت تنقر البيانو على غير نظام ملاحظةً اعمال غوستاف الذي كان يحاول التملص من يدي مدام دي سانكلر واذا بزائرين جديدين قد دخلا القاعة حائلين بين غوستاف والباب فاحتار لدى رويتهما واندهشا هما من وجودهِ فانهما انما كانا الموسيو دبرلي والموسيو دجاردن . فوقف

غوستاف جامداً وشهق دبرلي شهقة جذبت الانظار اليه وحملق دجاردن عينيه ليرتب كلامهُ وتمتمت مدام دي سانكلر برؤية قلق غوستاف وحالة ارجنيا الموجعة

على ان الحادثة قد تغيرت من وجهها الازلي الى المحزن لأن جوليا اذ رأت زوجها داخلاً قبل خروج غوستاف فارقتها قواها وغشي عليها فسقطت على ظهر جارتها العجوز المشتغلة بملاعبة كلبها الذي اخذ ينبح فخرج عقل العجوز ويئست وما كان بأسها لاشياء جوليا وانما كانت تخشى من ان يكون أصيب الحيوان الصغير بجرح فصارت تصرخ وتتأوه تأوهات جرحت آذان الحضور الذين اجتمعوا من حول جيوليا تاركين دبرلي في حيرة لا يدري ا يشتغل بغوستاف ام يهتم بزوجته ورأى غوستاف ان قد غدا وجوده خطراً جدا فاتجه الى دبرلي قائلاً

ـــ اذا كان لك يا سيدي كلام تقولهُ لي فانا في كل وقت رهين امرك وهاك عنواني

ووضع بين يدي المسيو دبرلي تذكرة زيارته وخرج غير تارك لهُ للجواب مجالاً فدنا دبرلي من امرأته التي كادت ان تعود الى وعيها صائحًا قائلاً « ما زال هذا الفتى مجنونًا » فقالت مدام سانكلر بخباثة

— مجنونًا يا سيدي . . . حاشا لهُ فما عهدت بهِ قط جنونًا

— عفوًا سيدتي لمخالفة رأيك . فهو مجنون ويستحق السلسلة فانني لاعرف والله من جنونه شيئًا غزيرًا وتعلم امرأتي المسكينة ايضًا كثيرًا ولا اشك في انها انما أُغمي عليها تحسبًا مما عساه ان يتولد عن مقابلتي مع هذا الفتى من الفضيحة . . . فقد كان من عزمي ان ابارزه كما يعلم دجاردن من انني صممتُ على قتلهِ

فقال دجاردن — نعم اذكر جيدًا وذلك حين حادث . . .

— غير اني لا اود المبارزة مع مجنون . . . فهو اذل من ان اعيره التفاتًا فضلاً عن ان امرأتي حظرت ذلك عليَّ

— لا غرو انك يا سيدي في غلط مبين . . . ثم التفتت الى اوجينيا قائلةً اولستِ يا عزيزتي من رأيي بتمام صحة عقل غوستاف

على ان مدام دي فونبل ما عادت تستطيع كلامًا لان ذهاب غوستاف غير المنتظر وكلمات دبرلي واغماء زوجتهِ كل ذلك التى عقارب الغيرة في قلبها فجعلت تنظر الى جيوليا مضطربة الفؤاد خفوقةً غير عالمة خفايا الامر فاجهزت

مدام دي سانكلر على جراح قلبها بألف سؤال اكملت عذابها مجتهدة في ان تظهر للمسكينة عظيم اهتمامها بشأنها غير متحولة عن الاعتناء الكاذب الذي يزيد في حيرة المعتنى به املاً بان تتمكن بذلك من انماء اوجاع اوجينيا وشكوكها التي بدأت تتأصل في لطيف فؤادها

وسعى غوستاف في صباح اليوم التالي الى دار اوجينيا باكرًا جدًا . خافق القلب مستعدًا للملام منها عنيف فلم تبادئه مدام دي فونبل بادنى عتاب بل غيرت معهُ عاداتها وما عادت كذي قبل بشوشةً وانما غدت فاترةً عابسةً تجيب على كلام غوستاف الهيامي بفتور وتكلف فيئس الفتى من تحول حالها واشتعل بحرارة الصبا فاضاع الوعي وسألها عن ذلك ايضاحًا فما اجابته الا بصمت قاتل اجبره على القيام بعزم الخروج من عندها فقالت حينئذٍ لهُ

— انا الليلة ذاهبة يا سيدي الى التياتر الفرنسوي فهل تسمح بمرافقتي اليهِ

— عن طيبة خاطر سيدتي واجيء هنا لاحظى بنعمة مرافقتك من دارك

قال ذلك وانصرف من عندها قائلاً في نفسهِ « عجبًا فما هذا التغيير العجيب فان ظاهرها يدل على انها عليَّ غضبى . ثم

تعرض عليّ مصاحبتها الى التياتر ... ولا ارى بدًّا من انتظار حل اللغز في هذا المساء» وظل واجسًا حتى وصل الدار فابتدرهُ خالهُ بالسؤال قائلا

— طمني عن احوال حبك . لانني اود الاحتفال بزواجك عن قريب

— والله انني في حيرة يا سيدي لا ادري ما اقول لك فان اوجينيا امرأة غريبة الطباع ... فلا يبعد من ان يكون وشى احدٌ بي عندها .. فلقد غضبت لأمر لا يمسها ولا يعنيها .. واذا كانت تميل منذ الان الى استماع كلام اللوماء فماذا عساها ان تفعل عندما نصبح فيما بعد متزوجين

— هوّن عليك فغضب الحب لطيف سريع الزوال ... ولا بدع في انها لا تفكر بهِ غدًا بل ربما تنساه في هذا المساء ...

وذهب غوستاف بعد الظهر الى مدام دي فونبل التي كانت في انتظاره . فخرجا من الدار سويةً وسارا في سبيل التياتر صامتين لان اوجينيا كانت حزينةً مشغولة البال وغوستاف متكدرًا من اهانتها له بعدم محادثته حتى صمت وما عاد وجه اليها خطابًا

فوصلا التياتر على هاته الحالة وجلسا في غرفةٍ كان

فيها كراس اخرى غير محتلة . ولكن دخلتها في الحال سيدتان احداها مدام دي سانكلر والاخرى صبية في غاية الجمال فظن غوستاف لمشاهدتها قبل ذلك الاوان وجعل يتذكر الموضع الذي رآها به . بينما كانت اوجينيا منكئة على درابزين اللوج تحادث مدام دي سانكلر التي تركت رفيقتها الداخلة معها مستسلمة الى عوامل دهشتها من روية غوستاف الذي عرفها حالاً فتبادلا النظرات وابتسما . . . لان السيدة المرافقة لمدام دي سانكلر كانت مدام دبور تلك التي قضت الليل من قبل في انتظار اخيها . . . بينما كان زوجها بعيدًا عنها منهمكًا في تأدية واجب الحرس الاهلي

وكانت اوجينيا تظهر في محادثة مدام دي سانكلر اهتمامها حتى ظن غوستاف امكان المخاطرة بالسلام على الحسناء التي كانت تتجاهل مجيئه برفقة اوجينيا وبدأت بمحادثة واذا برجل داخل في الغرفة فعرفه غوستاف من نوع محادثته مع مدام دبور انهُ زوجها وهو نفس الرجل الذي كان القاهُ على العامود ليتوارى عن وجه العسس

وكان الموسيو دبور من المفاخرين بانفسهم المغرورين فرمق السيدات بنظره وحرك امامهنَّ خنصرهُ اللامع بخاتم من

الماس الكريم وجعل يصف محاسن الرواية المشخصة بعالي صوتهِ مقدراً كلاً من المشخصين . . . والمؤلفين . . . والمتفرجين قدره . ثم بدا يحادث غوستاف الذي ما عادت مدام دبور تلتفت اليهِ . فجعلت اوجينيا تضرب الارض برجلها حنقاً واخذت مدام دي سانكلر تصغي لكل ما يقال باسمةً

ولا غرو في ان يستغرب القارئ افعال مدام دي سانكلر الشيطانية . . . وعظيم اهتمامها في زرع الشقاق بين غوستاف واوجينيا متعجباً من توصلها الى العلم بان مدام دبور تعرف غوستاف سانريال . . . عجباً انها علمت ذلك من غسالتها التي كانت لسوء حظ الخطيبين نفس ليزيت فتاة شارع شارلو

وما كانت ليزيت رديئة وانما كانت ثرثارة تحب الكلام والانتقام كلما رأت لذلك سبيلاً ولما بلغ مدام دي سانكلر معرفتها لغوستاف تمكنت بدهائها من جر الحديث على الفتى الفاتن الجميل المعروف بعفريت النسوان طرّاً وعلمت منها خبر عشقها للفتى . روته ليزيت متباهية جرياً على عوائد امثالها من المباهاة بعشق فتى نبيل

وعلمت مدام دي سانكلر من ليزيت ايضاً خبر الحادث الليلي واختصام غوستاف مع الحرس وزيارة مدام دبورا الصبحية

في دار ليزيت نفسها

فاعدت مدام دي سانكلر من ذلك الحين وسائل القتال . وكانت تعرف آل دبرلي غير ان ذلك لم يكفها بل توصلت الى مصاحبة مدام دبور مستعدةً منذ وقت طويل الى عظيم انتقامها مجتهدةً في اتمامهِ على مرغوبها فجعلت تعد المقابلات وتكثر الوشاية والحوادث الفجائية وتكتب لاوجينيا رسائل سرية اعلمتها بها خبر اقامة سوسانيت في قصر الميرالاي اذ لحظت ذلك من غلبة البواب الثرثار وان لم يكن هو ذاتهُ للامر متأكدًا . فنجحت مدام دي سانكلر بمثل ذلك في اذهاب راحة اوجينيا والقت الريب والمقاساة في نفس امرأة غيورة من طبيعتها

ولسائل عن السبب الداعي لمدام دي سانكلر الى ارتكاب هذا النفاق . لا غرو ان القصد منها كان رغبتها في الانتقام من غوستاف الذي ما تنازل لمقابلتها بمثل حبها ولم يجب على طلبات قلبها . فكانت تتمنى ان تدس سم نفسها الخبيثة في جسم اوجينيا التي رأتها مفضلةً عليها

ومن رام معرفة الحد الذي تصل اليهِ مكائد امرأة مناظرة راحمة فعليهِ ان يبحث عنهُ في قلب امرأة محبة للانتقام

وما كان اجتماع كل هؤلاء الاشخاص ليكفي مدام دي

سانكار بل كانت تبحث على وسيلة توجد بها فضيحةً تعظم شأن الامور فبلغت ما املت وابتدأت بمحادثة غوستاف بكلام بسيط قلبتهُ من ثم حالاً الى حوادث خطرة فقالت لهُ وهي تنظر الى مدام دبور بخبيث نظرتها

— لا غرو في انك تقلع متى تزوجت عن الجري وراء العسس

— ما معنى ذلك سيدتي

— معناه انهُ بلغني من عهدٍ قريب خبرٌ من اطيف فلتانك المغتفرة لعازب مثلك . . والتي جعلتني اضحك كثيرًا . . .

فقالت اوجينيا — واي شيء جرى

— جرى حادث مضحك . . فلقد كان المسيو غوستاف على ما اذكر مع أحدى السيدات الخفف في شارع شارلو موعدٌ . . .

— ألا ما ذكرت سيدتي . . بان هذا الامر يخصني وحدي وارى . . .

— لله منك فلماذا تتندم غيظًا فانك كنت اذ ذاك حرًا تعمل ما تريد . . . فدعني بالله اتمها . . . قلت وبينما كان الفتى يحادث حبيبتهُ الحسناء التي كانت تسكن وسط الشارع على ما اظن مر من هنالك عسس من الحرس الاهلي كان

زوج تلك المرأة احد رجالو فرأى الزوج شاباً يحادث زوجته ... فجرى اليهِ وتبعه ...

— كفى سيدتي كفى . فان هاته القصة كاذبة من اصلها وان أكن اجهل غايتك من اشهارها

— نقول انها كاذبة ولي عليها شهود عدول فهذا المسيو دبور الذي كان في شارع شارلو مقيماً فلا بد من ان يذكر الحكاية التي عملتها بضربك على الابواب كلها

وما ناداه المسيو دبور حتى اخذت مدام دي سانكلر تقص حكايتها بكلمة . وانما جعل يسمعها مصغياً تعابير سيمآ عظيم اضطرابهِ ملاحظاً من الحديث المتبادل بينها وبين غوستاف ان هنالك اتفاقاً منويا لحكاية ما جرى له بوجه التمويه واستعدا من حينهِ للانتقام فنظر الى زوجته بعين تطاير منها الشرر ثم لطم غوستاف على ذراعه ودعاه الى ان يتبعهُ خارجاً ...

فيئست مدام دبور مذ رأت غوستاف وزوجها خارجين وجعلت تذرف الدمع السخين . وتظاهرت مدام دي سانكلر بالحيرة والاندهاش سائلةً عن معنى هذا البانطوميم (١) وما فاهت اوجينيا بكلمةٍ وانما كان الحزن على وجهها الوضاح

(١) البانطوميم في الاصل رواية تشخص بالايماء ليس الا . ويطلق على كل اشارةٍ يفهمها متبادلوها بغير كلام

باديًا رغمًا عن عظيم اجتهادها في اخفاء ما كانت تقاسي

وظل غوستاف المسيو دبور تابعًا حتى خرجا من التياتر فقال الفتى له

— ألا ما اعلمتني يا سيدي ما تريد ان تقول لي

— انت يا سيدي تعلم حق العلم انك ثلمت عرضي . . . فما من حاجة لان ابين لك اشياء انت تعلمها احسن مني وانما ساعلمك بانني لا اطيق ان يزدرى بي بحضوري . . . فان اقتران الرجل لنعل سافل ذميم . . . على ان لا اوم على الزوج اذا لم يخجل ما دام للامر جاهلاً . . . غير ان ايقافه عليه بحضرة الشهود . . . شيء يا سيدي غير محتمل . . . ولا بد لي من رد شرفي المثلوم

— وانما لاحظ يا سيدي على انني ما قلت من ذلك كله حرفًا . . . اذ انه عار عن كل صحة حتى ولو فرضنا امكان وقوعه لما نزلت الى حد من الدناءة اثلم به شرف زوجتك علنًا . ولقد يمكن قرع باب بدون دخول الدار بل يحسن ان تلاحظ بان لا حاجة للعاشق المحبوب من الدبدبة وايقاظ كل الشارع

— فتقر اذًا بانك انت المشار اليه . . .

— نعم وانما انا ما كنت اعرف زوجتك

— اطل خداعك على الغافلين ... فلقد اقرنتني ..
والأمر يا سيدي الحلو ظاهر ... ولكن لا بد من ان تكفر عن تلك السيئة

— انصدّق وشاية امرأةٍ لا همَّ لها الاّ دس سم الشقاق بين المتزوجين

— ان مدام دي سانكار لامرأةٌ شريفةٌ انبل من ان تقول شيئًا كذبًا ولو علمت انني الزوج الحارس في العسس لما روت الأمر بحضوري .. وما كانت تأكيداتك لتنفي الريب من قلبي .. فلقد غُدرت ... والخيانة الّمٌ قاتلٌ ... يصيبُ واحسرتاه اكثر اصحاب العقول . .

— ولكن سيدي . .

— لقد أقرنتُ يا سيدي والأمر مثل الصبح ظاهر

— وانما انا لا ادعوك بذلك حتى ولو تم لك الثًا

— هذه اهانةٌ جديدةٌ اضفتها على ما سلف فلا بد من برازنا

— فلنتبارز كما تشاء وننتهي

ثم اتفق غوستاف والموسيو دبور على تعيين الساعة والمكان الذي سيتقابلان بالغدِ فيهِ . وعاد الزوج الى التياتر تاركًا غوستاف في الشارع واقفًا لا يدري أ يرجع الى اوجينيا

ام لا . وكان يخشى ان يزيد برجوعه حيرة مدام دبور وسرور دي سانكلر الخائنة . وانما رأى ان عدم الرجوع الى خطيبته التي اتت معهُ الى التياتر وحدها يكون نقصاً في الواجب وعاراً

فعاد الى التياتر قائلاً في نفسهِ «وارحماه لمدام دبور فان زوجها والله رجلٌ وحشي الخلق غريب الطباع يعتقد بانني افرنتهُ حتماً ويهددني من اجل ذلك بالبراز . ولقد خدعتُ والله من الازواج كثيراً وما منهم من دري . . ولآن يضطرني الى القتال زوج امرأةٍ بالكاد اعرفها . . . فقسماً يا مدام دبور بعينيكِ انني ساجتهد لو سمحت الفرصة بعمل ما يجعل زوجكِ فيما يقول صادقاً »

وفتح غوستاف باب الغرفة التي كان من قبل فيها فلم يرَ لآل دبور اثراً . . . لا ولا رأى اوجينيا بل ابصر مدام دي سانكلر في اللوج وحدها تنظر اليهِ صامتةً حابسةً خبيث ابتسامتها الدالة على خبيث احساساتها

فكاد غوستاف حين رآها ان يطلق لغضبهِ العنان . . . وانما كظم غيظهُ علماً بان ذلك يكون داعياً لزيادة سرور تلك السيدة الكاذبة الوداد المنافقة . فتركها وفي قلبهِ من احتقارها بقيةٌ متذكراً ان على الرجل احترام الجنس الضعيف حتى ولو اساء ذلك الجنس الهنا

*

١١

البوهيمي الصغير

وحال ما خرج غوستاف من التياتر سار الى مدام دي فونبلّ ليبرئ ساحته امامها ويشفي غليله بملامها فقالت الخادمة له ان سيدتها ترفض زيارة كائن من كان فقال

— عجبًا حتى ولا عريسها العتيد

— ولا هذا يا سيدي تلكم اوامر سيدتي اصدع بها

فعاد صاحبنا الى دار خالهِ قائلاً « لم أُربط بعد مع اوجينيا بزواج وتجاوز بغيرتها الحدود ... وتغضب لامور حدثت من قبل اتحادنا فهذا والله تحكم غريب ... غير اني احبها واعتقد بانني سأكون امينًا على عهدها . ولكنها تأبي ان تصدقني لمجرد ان قيل عني انني عديم الثبات ... وانما

انا ارى انني اعظم من المعروف عني قلبًا وحسن صفات

وما فاه غوستاف امام خالهِ بكلمةٍ من خبر حادثتهِ الاخيرة بل صحا في فجر اليوم التالي ليذهب الى المحل المعين للبراز

وعزم ان لا يأخذ المبروك معهُ اجتنابًا لقيلهِ ولقاله وانما افتكر في انه ربما عاكسه الحظ ودارت الدائرة عليهِ فمن الصواب اذًا ان يأخذ برفقته احدًا يأتي بهِ في مثل هاذه الحال الى داره

فقطن لأخذ الموجي الصغير الذي اعرب دائمًا لهُ عن وده وانعطافه

فخرج فتانا من حجرته متأبطًا طبنجتيه وكل اهل الدار نيام غير ان الباب الكبير كان بعد مقفلاً فلا بد لهُ من ايقاظ البواب الامر الذي كان يود اجتنابه على انهُ دنا من غرفتهِ ونقر على الزجاج يأمره بفتح الباب

فبدلاً من ان يسحب البواب الحبل ويفتح الباب لهُ قام بالقميص واخرج من النافذة رأسه ليرى الشخص الخارج في تلك الساعة الباكرة جدًا فصاح

— رباهُ ... فانت الموسيو غوستاف

— نعم عزيزي فافتح الباب لي

— عجباً تخرج باكراً ... فلعلَّ سيدي المير الاي مريض ... وعسى ان يكون ثار النقرس عليه ... بل عسى ...

— ان خالي نائمٌ وسوألانك ضايقتني فافتح الباب على عجلٍ

— غير اني لا ارى معك ابني ... وجعل ينادي مبروك ... مبروك ... فقال غوستاف

— اصمت فلو كنت في حاجة الى ابنك لما عجزت عن ايقاظه ... فافتح ... لقد اوليتني بهذرك ضجراً

قال غوستاف ذلك بصوتٍ لم يدع للتردد مجالاً ففتح البواب له ملتمساً الف صفحٍ عن ذنبه فخرج غوستاف متحسباً من ان لا يجد البوبجي الصغير . وادار نحو مركز الفتى الاعتيادي نظره فابصره جالساً على المصطبة يأكل قطعة من الخبز يبلها بجاري دمعه فدنا غوستاف منهُ برقة وحلاوة ولطم كتفه برفق فاضطرب المسكين من روية غوستاف ونشف في الحال دمعه فسألهُ غوستاف قائلاً

— ما بالك يا حبيبي تقضي بذرف الدموع كل اوقاتك و لمَ لا تروي لي عن احزانك ... فاذا كان الفقر سبب بلائك واهلك في شقاء عظيم فاليك هذا الكيس خذ منهُ

ما تريد . . . فلكم بذرت المال في شوك الجنون . وما كنت عند اسعاف اهل المسكنة بخيلاً

فابى البويجيُّ اخذ الكيس وقال بصوتٍ منخفضٍ حزين

— لا حاجة لي بالمال يا سيدي

فتأثر غوستاف وما علم سبب تأثره فان كلمات الفتى المسكين كانت حلوة رقيقة تشبه كلمات امرأة رنَّ صداها في صميم فؤاد صاحبنا الذي راح يبحث في ذاكرته عن الوقت الذي أُسعد فيهِ بسماع مثل هذا الصوت الذي يولي جسمهُ رعدةً

على ان الوقت ازف وما يليق ابقاء المسيو دبور في عذاب الانتظار فقال غوستاف للفتى

— انا في حاجة اليك فاتبعني

فقام الفتى يتبع غوستاف مسرعًا وسارا في شارع الأرامل متجهين نحو الشانزليزه محل الملتقى مع المسيو دبور الذي وصل قبلهما ورآه غوستاف يتمشى جيئةً وإيابا فاشار لرفيقهِ بالوقوف بعيدًا مسافة مئة خطوة ليبنما يعود له فامتثل البويجيُّ وابتعد غوستاف متقدمًا الى المسيو دبور قائلا

— تأخرت يا سيدي فارجوك عفوًا

ـ لا باس يا سيدي فقد وصلت انا الان ايضاً .. وأهل احضرت طبنجتين

ـ نعم ... وانما ارجوك ان نبعد عن هنا قليلاً ... لانني اود ان لا يرانا الفتى الذي جاء معي ...

ـ انت يا سيدي وما تريد

وسارا في ممشى ثان قليلاً ثم وقفا وابتعد الخصمان عن بعضهما فقال غوستاف

ـ انتَ واهمٌ بكونك المهان فاطلق النار اولاً

فما احتاج المسيو دبور الى تكرار الرجاء وصوب الطبنجة الى غوستاف فاصاب الرصاص جنبه الايمن وسقط على الارض جريحاً فاسرع المسيو دبور اليهِ ... وقال لهُ

ـ انقر الان يا سيدي بانك اقرنتني

ـ حاشا ... فانني لا اقر بشيء لا اصل لهُ وها انا ذا على شفا الموت اؤكد لك انك في غلط مبين

ـ فانا يا مولاي اذًا في اسفٍ على ما جرى ما عليهِ من مزيد .. فدعني اذهب لابحث عن عربة وابعث لك خادمك

وسار المسيو دبور فلقي الفتى البوبجي مضطرباً اذ وصل صوت الطبنجة اليهِ وجعل يجري في اثر غوستاف حتى قابل

ما تريد . . . فلكم بذرت المال في شوك الجنون - وما كنت عند اسعاف اهل المسكنة بخيلاً

فابى البويجيُّ اخذ الكيس وقال بصوتٍ منخفضٍ حزين

— لا حاجة لي بالمال يا سيدي

فتأثر غوستاف وما علم سبب تأثره فان كلمات الفتى المسكين كانت حلوة رقيقة تشبه كلمات امرأة رنَّ صداها في صميم فؤاد صاحبنا الذي راح يبحث في ذاكرته عن الوقت الذي أُسعد فيهِ بسماع مثل هذا الصوت الذي يولي جسمهُ رعدةً

على ان الوقت ازف وما يليق ابقاء المسيو دبور في عذاب الانتظار فقال غوستاف للفتى

— انا في حاجة اليك فاتبعني

فقام الفتى يتبع غوستاف مسرعاً وسارا في شارع الارامل متجهين نحو الشانزليزه محل الملتقى مع المسيو دبور الذي وصل قبلهما ورآه غوستاف يمشي جيئةً وإياباً فاشار لرفيقهِ بالوقوف بعيداً مسافة مئة خطوة لبينما يعود لهُ فامتثل البويجيُّ وابتعد غوستاف متقدماً الى المسيو دبور قائلاً

— تأخرت يا سيدي فارجوك عفواً

— لا باس يا سيدي فقد وصلت انا الان ايضاً .٠٠ وأهل احضرت طبنجتين

— نعم ٠٠٠ وانما ارجوك ان نبعد عن هنا قليلاً ... لانني اود ان لا يرانا الفتى الذي جاء معي ...

— انت يا سيدي وما تريد

وسارا في ممشى ثان قليلاً ثم وقفا وابتعد الخصمان عن بعضهما فقال غوستاف

— انتَ واهمٌ بكونك المهان فاطلق النار اولاً

فما احتاج المسيو دبور الى تكرار الرجاء وصوب الطبنجة الى غوستاف فاصاب الرصاص جنبه الايمن وسقط على الارض جريحاً فاسرع المسيو دبور اليهِ ... وقال لهُ

— انقر الان يا سيدي بانك افترتني

— حاشا ... فانني لا اقر بشيء لا اصل لهُ وها انا ذا على شفا الموت اؤكد لك انك في غلط مبين

— فانا يا مولاي اذاً في اسف على ما جرى ما عليهِ من مزيد ٠٠. فدعني اذهب لابحث عن عربة وابعث لك خادمك

وسار المسيو دبور فلقي الفتى البوبجي مضطرباً اذ وصل صوت الطبنجة اليهِ وجعل يجري في اثر غوستاف حتى قابل

دبور وقال له ان مولاه مجروح . فطار الفتى المسكين الى المحل الذي ظل غوستاف فيهِ فرآه على الارض طريحًا مضرّجًا بدمائهِ فدنا منهُ يريد اسعافه فما اسعفتهُ قواه ووقع بجانب الجريح فاقد الرشد والصواب فقال غوستاف «اي فكرٍ جاءني باحضار هذا الفتى الذي يفقد من مجرد رؤية الجرح رشده ... ولو كنتُ اتمكن على الاقل من اسعافهِ ... وانما ليس معي ما يعيد الوعي اليه ... وليس لي على تحريك رجليَّ قوة ... والمكان قفرٌ بلقعٌ لا ارى فيهِ ديارًا .. لأن الوقت باكرٌ جدًّا واذا لم يجد الموسيو دبور عربةً يرسلها لي نبقَ واللهِ هنا بدون نجدةٍ مدةً ... وصار غوستاف ينادي المدد فلم يجبهُ احد فيئس ووقف على الاقدام متعثرًا يحاول المشي فما افلح اذ خانته القوى ووقع فاقد الحس بجانب البوبجيّ الصغير . ومن حسن حظ فتانا ان بواب دار الميرالاي كان ثرثارًا طلعًا فبعد ما فتح الباب لمولاه الفتى نادى في الحال ابنه الذي استيقظ في تلك الدقيقة فجرى الابن الى ابيهِ الذي كان قلقًا يعاود التطلع من نافذته ليلاحظ السبيل فقال المبروك له

— والدي ما الخبر

— ان في المسئلة يا ولدي سرًّا ... فلا بد من

ان يكون جرى للموسيو غوستاف حادث خطرٌ . . . فلقد خرج من الدار مسرعًا مغضبًا . . . بدون ان يتنازل الى اجابتي . . . وها هو في ذلك المنحدر يحادث هناك صبيًا

— هذا والله صديقه المحبوب يا ابي

— فانظر اليهِ انهُ قد سار والبوبجي يتبعه . . . فيجب عليك يا مبروك ان تجري في اثرهِ فهو مولاك . . وانما كُن عنه بعيدًا

— غير اني بدون برنيطه

— خذ قبعتي الحرير السوداء . . . وسر مسرعًا . . . واياك من ان تزيغ عنهُ انظارك . . . ثم تعال لتعلمني ما تكتشف عليهِ من الاسرار

فوعد المبروك بذلك اباه وراح يجري وراء غوستاف والبوبجي مبتعدًا عنهما قليلاً ومذ رأى مولاه واقفًا يحادث رفيقه الفتى وقف هو ايضًا في مكانهِ ثم سمع صوت الطبنجةِ وابصر الموسيو دبور منصرفًا فاسرع وراءه ليعلم ما اذا كان مولاه مجروحًا فسمع جواب دبور الايجابي وطار في اثر عربةٍ عاد الى ساحة البراز بها بعد اغماء غوستاف ببعض دقائق

فاستعان بسائق العربة على رفع مولاه اليها وجلس

هو بجانبه . ثم امر السائق بالمسير بدون ان يفكر بالفتى الذي ابقاه وحيدًا عديم كل اسعاف لأن مبروكًا كان محبًا للانتقام ولا يبالي باساءة من يكره ومن عادة اهل البله التعمق في البغضاء وليس سوى الانفس العظيمة ذا قدرة على العفو عن المسيء ومكافأة الشر خيرًا

وما وصلا الدار حتى عاد غوستاف الى وعيه فاستقبله خاله المسكين بسرور وكان قبل وصوله دائرًا في كل الغرف حائرًا لعظيم ما اوهم البواب عليه في رواية حادث الفجر ... يلعن النقرس الذي يحول دون خروجه من الدار للتفتيش على ابن اخته

وما كان جرح غوستاف لحسن الحظ ذا خطر سيء العاقبة على ان الميرالاي كان قلقًا يود الاطمئنان حتى اذا ما تأكد له قرب شفاء غوستاف راح يوجه اليه ملامًا عنيفًا ...وبينما كان غوستاف يقص على خاله ما جرى في الليلة الفائتة له واذا برسالة حضرته من عند مدام دي فونبل فقرأها ثم اعطاها لخاله فسأل الميرالاي

— لعلها تسألك عفوًا ورضى

فقال غوستاف — لا فاقرأ الكتاب تعلم ان لا سبيل لزواجي

— فقرأ الميرالاي الرسالة الآتية

سيدي غوستاف

«اني لاضنُّ براحتك و راحتي ان يتولاها الشقاء بسبب
«زواجنا اذ انني اشعر من نفسي بعظيم حبي الك بحيث لو اصبحت
«لك زوجةً يستحيل الهناء عليَّ لأن طيشك الغريزي
« وخننك يعرضان نفسي الحزينة الى الآلام واوجاع تنفي
«الراحة عن ربوعي فلقد شهدتُ من منذ يومين دلائل
«قوية على عدم ثبات قلبك . فهالني ماضي امرك وجعلني من
«الاستقبال جزوعة ولا تحزن فان لك في الجبوليات
« والدبور واللبزيت والفلاحات تعزيةً على فقد اوجينيا
«التي ترى من واجبها ان تقطع معك كل علاقة وتتمنى لك
« بقاء رغيدًا وعيشًا سعيدًا »

وما اتمَّ الميرالاي قراءة الكتاب حتى قال «ألا لعنة الله على العشاق والنساء واهل الحب والزواج اجمعين وياويلاه منك فمن اجلك يا عفريت جرى ذلك ايضًا فلن تزل تأتينا كل يوم بنباء جديد »

بل لو سمحت يا سيدي الخال لقلت لك ان لا ذنب في هذه المرة لي فانما الشر كل الشر بدا من امرأة عاهرة هي مدام دي سانكلرا التي مزقت حجاب كل هاته المشاكل .

فلقد مضى عليها حين من الدهر بذلت به جهد المقل سعياً في ان تنزع من قلب اوجينيا حبي فنالت بعد الصبر ما املت ... ولا اسف على فقد مدام دي فونبل ما دامت تصغي الى كل ما يقال لها عني من قبل زواجي اذ لا بد لحصول السعادة بين الزوجين من ان لا يعير الواحد ما يقال في حق الآخر سمعاً بل يجب عليها ان يصما الآذان حتماً عن سماع كلام اهل الفساد الساعين في سلب راحة العباد

— غير انك لو كنت شديد الوله باوجينيا لما تفلسفت بقلب بارد فلا غرو ان مت بعد الان عازباً

— وقاني الله يا سيدي ... فلا بد لي من اتخاذ امرأة اذ لا اريد حرمانك من هاته الفرجة وما دام ليس في باريس من تبغي زواجي فسأسافر حالما أشفى الى سويسره حيث يقال ان النساء فيها طاهرات بل اذهب الى انكلترة مقام الحب الحنون بل اسوح اذا احوج الحال في اقطار المسكونة الاربعة فانتهي لا شك بوجود امرأة لا يخيفها زواج عفريت نظيري ...

ثم خطر له خاطر فقال اني لا ارى مبروكاً هنا وناداه فجاء يقول

ــ ها انا ذا يا سيدي

ــ أ انت الذي وجدتني في الشانزليزه مغمياً عليَ

ــ نعم سيدي

ــ واما رأيت بجانبي . . . فتىً فلقد وقع ذالك المسكين ايضاً فاقد الاحساس مذ ابصرني جريحاً

ــ انعني البوبجي . . . الذي يجلس في زاوية البيت

ــ نعم البوبجي الصغير . . فماذا فعلت بهِ

ــ لم اعمل يا سيدي بهِ شيئاً

ــ فهل تركته يا قاسي القلب فاقد المعونة معرضاً للنائبات

ــ لا يا سيدي . . . فانهُ مذ رآني ولى الادبار كمجنون

ــ ويك تقول هرب . . . اذا كان اذاً مغمياً عليهِ

ــ حاشا يامولاي فحين وصولي بالعربة كان الخنزير يغني

ــ يغني . . . بدلاً من ان يساعدني . . . كذبتَ يا مبروك واردت خدعتي

ــ سيدي سل والدي تعلم اني وبيتُ صادقاً مخلصاً وان . . .

ــ كفى فان لم يأتِ البوبجيُ الى ركن الدار في نفس هذا النهار طردتك من خدمتي الى حيث

ــ وانما انا يا سيدي . . .

وما اتم مبروك كلمات عذره حتى صدرت عن الفسحة اصوات اقدام وجاء خادمٌ يقول «ان الفتى البويجيّ وصل الدار تواً ويتوق الى رؤية غوستاف»

فأمر غوستاف بادخاله عليهِ فأتى المسكين حالاً ودنا من سرير المجروح حزيناً واخذ يده يغمرها بسخين عبرته فقال المبروك « تعساً للشقي كيف يظهر الحزن نفاقاً وحيلة على اختلاس مركزي »

غير ان غوستاف طمن الفتى عن حال صحتهِ وجعل يسألهُ عمَّا اذا كان كلام الخادم صادقاً

وبينما كان غوستاف يحادث البويجي والمبروك مهموماً يبحث على عذرٍ ينجيه من غيظ مولاه . كان الميرالاي يلاحظ الفتى البويجي ودلائل الاشتغال على وجههِ باديه

فوجه غوستاف الى مبروك ملاماً عنيفاً واعظم مكافاءة البويجي لعظيم حبهِ لهُ وكبير انعطافهِ اليهِ وانصرف الجميع من عند الجريح لينال في الوحدة بعض راحةٍ

وما مرَّ على غوستاف خمسة عشر يوماً حتى كتم جرحه وكان الميرالاي في خلال ذلك الوقت مهتما بملاحظة مدام دي فونبلّ والوقوف على ما تجريه فعلم بأسفٍ عظيم انها سافرت الى احدى ابعدياتها . فقطع ذلك الخبر حبال آمالهِ

في العقد لغوستاف عليها لعلمهِ بان غوستاف ما كان الرجل الذي يتابع امرأة تظهر انها تهرب منهُ

ومذ نجا غوستاف من خطر الجرح تماماً رأى ان يعد معدات سفره مصمماً على هجر فرنسا الى حين اذ ما عاد لهُ ما يستدعي البقاء فيها . فانهُ قطع ارضاء لمدام دي فونبل كل علاقاتهِ القديمة وقد اقامت جيوليا بينها وبين اخطار الحب سداً وما عاد لراقصات التياتر على قلب فتانا ادنى سلطان وكانت ايزيت قد اقترنت بعامل برانيط اجتهدت في ان تريه نجوم الظهر بغياً . وما كان اهتدى الى محل وجود موسانيت . وعلم ان اوليفيه ظل يلعب القمار بدل الذهاب الى اشغالهِ حتى اضاع وظيفته وصار شقي العيش تعيساً . بحيث رأى غوستاف الشهم رغم طيشهِ انهُ يستحيل عليهِ معاشرة فتى ما كان يخالط الا نساء ادنياء ورجالا خبيثي السمعة وعليهِ فما بقي في باريس ما يستحق بقاء غوستاف فيها . واوضح للمير الاي رأيه . فاستحسنه املاً بان تصلح الاسفار من طباع ابن اخيهِ

فاتم غوستاف كل تجهيزاتهِ ورضي بان يأخذ المبروك معه ليقنع خاله بانهُ ما كان على عزم تجديد سابق جنونه . علماً بان ذلك الابله ما كان يدري الا خدمة الطعام

واسراج الخيل

ولا تسل عن فرح مبروك بمرافقة سيده اذ كان في بادىء الامر يخشى من ان يأخذ البويجي بدلاً منهُ خادمًا . وكان من شدة سروره يناجي ابدًا اباه بحديث عنيد اسفاره ويعلم انفتى بكل ما يعقد العزم عليهِ اذ رأى انهُ يزيد بذلك احزانه وهذه حالة مبروك وغيره من ضعفاء العقول

ثم جاء ميعاد السفر فاراد الميرالاي ان يوصل ابن اخيهِ حتى سنجرمن وامر باعداد عربتهِ الصغيرة وبان يسبقهما المبروك اولاً لان غوستاف كان يتوق الى السفر راكبًا والركوب في الاسفار افضل اذ يمكن من التفرج على كل ما يمر الانسان عليهِ من البلاد

ولما ركب غوستاف في عربة خاله اجال نظره مفتشًا على البويجي الفتى ليترك لهُ من كرم نفسهِ اثرًا فما رآه في موضعه ولا رأى صندوقه الصغير ولا كرسيه فعجب لذلك وساءه ان يسافر قبل ان يراه

وسارت العربة فوصل الخال وابن اخيهِ الى سنجرمن في اقل من ساعتين واتجه الميرالاي بالعربة نحو الفندق الذي سبر المبروك من قبل اليهِ حتى صار منهُ على قاب

فوسين وإذا بعربة كبيرة آتية امامها تجري بعزم الرياح غير تاركة للمير الاي لاجتناب انصدام سبيلاً وكان سائقها قليل الاختبار فصدم العجلة الصغيرة وقلبها ثم ضرب بالسياط خيله فطارت تسأل من غضب المير الاي مقيلاً

فسقط غوستاف وخاله على جنبيهما وقام المير الاي سليما يشتم ويسب وما أصيب غوستاف الا برض في رجله. ولكن سمعا في الحال من ورائهما صراخًا موجعًا فاجتمع الناس من حول العربة وصار المير الاي يسأل عما اذا داست عربته حال انقلابها احدًا . ثم رأى بويجيًا صغيرًا على الاكف محمولاً فادخلوه الفنا ق القريب وما رآه غوستاف حتى صرخ مندهشًا من معرفة محسوبه الفتى وبالاخص لدى علمه بان ذالك الفتى المسكين ما صعد وراء العربة الا في حين سقوطها فقال

— رحماك سيدي الخال الا ما امرت بان يعتني بهذا الفتى المسكين وبان يعالج بينما اذهب انا لمعالجة رجلي

فاجاب المير الاي رجاء ابن اخته وجرى الى البويجي الصغير مسرعًا . اما غوستاف الذي كان يشكو من الالم الرضة فاخذوه الى حجرة وجاءه المبروك بحكيم اسنان... تعهد باشفاء الرض في مدى اربع وعشرين ساعة

وقضى الحكيم على غوستاف بان يظل في الحجرة وان لا يأتي بحركة فامتثل متكدرًا وشكا من عدم رجوع خاله اليه اذ كان يحترق بلظى معرفة ما تم للدوبجي الصغير وهم على ارسال مبروك في طلبه واذا به داخل الحجرة

وكان الميرالاي اصفر اللون قلقًا تدل هيأته على عظيم اضطرابه فجزع غوستاف وقال

— ما بالك سيدي وماذا جرى فلعل جرح ذلك الفتى المسكين ينذر بموته

— لا . . . لا . . . فان جرحه بالعكس خفيف لا خوف عليه منه

— ولم انت في هذا الاضطراب

— عجبًا ان سقطتنا كانت كافية لان تقلق الحواس فلا تستغرب اذًا . . .

— وانما كنت قبل ذهابك الى البوبجي اقل اضطرابًا فلا غرو في ان تكون كاتمًا بعض السر عني . . . فاستحلفك بالله قله

— عجبًا لك فما كتمت والله عنك شيئًا فاي شيطان تريد ان اقول لك . . . فان المسكين يكاد ان لا يكون مجروحًا . . . وانما اضاع الخوف رشده وسيزول ذلك

في الغد

— ولماذا ركب وراء العربة

— على ما ظهر لي انهُ كان تابعًا لنا . . .

— تابعًا لنا . . . ولاية غاية

— لغاية ان يركب . . . والا تعلم ان من عادة اولاد الازقة ان يركبوا وراء العربات

— وانما انا يا سيدي الخال اظن

— كفى ما تكلمنا بشان هذا الفتى فلقد قلتُ لك انه ما اصيب بشيء وقد اعطيته نقودًا يتداوى بها فلا ينشغل من قبله بالك وبما ان رضك ما هو الا خفيف فيمكنك ان تبداء في الغد سفرك واما انا فعائدٌ الى باريس ادعو لك بالسلامة

— رحماك خالي العزيز اتجد من قلبك قدرةً على تركي في هذا النزل اموت من الملال وحدي فما الذي يضطرك الى السفر والا ما عدت غدًا

— قلت لك ان لا بد لي من السفر في هاته الدقيقة فلي لرجوعي الى الدار اسباب ولا يصعب عليك ان تبقى في النزل بدون رفاق يومًا واحدًا اذ سيتوالى ذلك عليك في سفرك . فالوداع ياغوستاف الوداع . . .وها معك نقود

وكتب توصية على بلادٍ شتى وانت تعلم انهُ يمكنك عنــد الحاجة ان تسحب عليَّ حوالاتٍ ادفعها بالاطلاع حبًا بحسن سرورك وحذار من ان تأتي في السفر بفلتات اخرى واذا لقيت امراةً عاقلةً حلوةً امينةً هاتها معك لنعقد لك عليها وانما تذكر جيدًا بانني انما اقترح هاته الصفات الثلاث

وعانق الميرالاي ابن اخته بحنوٍ زائدٍ وتركه وحيدًا.

وبعد بعض دقائق سمع غوستاف صوت عربتهِ خارجة من الفندق

على ان غوستاف رأى في تصرف خالهِ شيئًا خارقًا للعادة فان حزنه الشديد لدى رجوعه لحادثتهِ وعزمه الجاري على السفر الى باريس في الوقت الذي ليس لهُ ما يدعوه اليها كل ذلك ابان لهُ ان قد اخفى خاله عليهِ امرًا اجتهد باطلاً في اكتشافهِ وراح يتعب دماغه في معرفة الداعي لتلك العودة السريعة مؤملاً ان يعلم ذلك من البويجي في الغد

ولما جاء المساء قال غوستاف لمبروك ان يذهب ويستنبئه له عن صحة الجريح المسكين فخرج الخادم ثم عاد الى مولاه حالاً فقال غوستاف

ـــ ماذا جرى على الفتى قل لي

— لا غرو ان لا يكون ياسيدي حاله خطرًا ما دامه سافر

— سافر . . . البويجي الذي جرح في هذا الصباح . . لا فذلك مستحيل

— لم اقل يا سيدي الا ما تاكد لي وذلك يدهشني انا ايضًا .

— انتَ يا مبروك نافض

— والاغرب يا سيدي ان خادمة الفندق تؤكد لي ان سيدي الميرالاي هو الذي اخذه في عربتهِ

— تقول ان خالي اخذ البويجي معهُ

— نعم سيدي ولقد ابدى لهُ من العناية كثيرًا . . وما سمع لاحدٍ سواه ان يعينه على ركوب العربة . . ويجب القول بان ذلك البوز الاسود ساحرٌ حتى غدا صاحبًا للمير الاي عزيزًا

فتحير غوستاف من عمل خالهِ وانما صرف معنى فعلهِ الاخير الى رقةِ قلبهِ فانهُ كان يخفي تحت ظاهر قساوته نفسًا كريمةً وحنونةً

وحس غوستاف في اليوم الثالث بقوة تمكنهُ من امتطاء الجواد فترك منجزمينْ وراح يبداه اسفاره

*

١٣

خلال ثلاثة اعوام

وبدلاً من ان يسير غوستاف في سبيل ايطاليا مثل ما كان ينوي سار في سبيل آخر وتحول الى ارمنونفيل فتحير المبروك لعلمه بان ذلك السبيل غير مؤدٍ الى الجهة التي يقصدون وصار يود ان يعلم المحل الذي يسير اليه مولاه . وكان الان اقل من سفره الاول جبنا بحيث صار يعدو بجواده خبباً ويسير بجانب غوستاف . غير انه ما كان يجسر ان يوجه اليه سؤالاً حتى وصلا القرية فعرف مبروك القصر وجسر البلد ودار المسكين لوكس التي حل غوستاف عند بابها فلم يعد في وسعه على الصمت صبرٌ وتاق الى معرفة القصد الذي جاءا الى الفلاحين من اجله فقال

ــ عجبًا مولاي اتنوي الاقامة هنا ايضًا

ــ سوف ترى

ــ فتقيم القيامة في الدار ايضًا وتجعل البقرات تفر والعجائز تصيح . . .

ــ سأفعل يا موسيو مبروك ما اراه واعجبني وان عدت الي سوالاتك اعدتك الي باريس حالاً .

ــ ما عدت ابغم يا مولاي

فدخل غوستاف في الفسحة ورأته فلاحة فاندهشت من رؤيته وصاحت لانها كانت ماريجان عرفت غوستاف الذي سرّ لمقابلتها قبل آل لوكس ليعلم منها كيف يكون استقباله . فاشار الى الخادمة بالمجيء اليه لمحادثته فخفت اليه قائلةً

ــ عجبًا ارى مولاي . . . فيا للسرور اذ ما كنا نترجى مجيئك . . . فلقد مضى على يوم حضورك عامٌ . . . نعم عامٌ . . . اذ جئتَ في زمن الخوخ . . .

ــ اعلميني يا عزيزتي ماريجانُ عن احوال اهل البيت أهم منشرحو الصدر دائمًا على ما اعهد فيهم من السرور

ــ واحسرتاه يا سيدي فلقد طرأ علينا تغيرٌ في الحال كبير . . . واما دريت اذًا . . . فان سوسانيت تركتنا والا ما دخلت يا سيدي فتروي سيدتي لك عن كل شيء

فلحظ غوستاف من حديث ماريجانّ ان لهس من يعلم انهُ كان في هرب سوسانيت سبباً فدخل الدار حالاً حيث رأى مدام لوكس و زوجها

فلاقاهُ الزوجان بلطفٍ و بشاشةٍ وكان لوكس اقل من قبل كلاماً غير ان زوجته كانت على حالها من الثرثرة فروت لغوستاف خبر هرب سوسانيت من بيت ابائها وكانت كلما جاء ذكر بنتها تبكي فتنزل دموع المسكينة على قلب غوستاف اذ كان يشعر بانهُ هو مجريها اذ لو لم يأت دار لوكس لظلت الفتاة في القرية سعيدة بين اهلها ولما رجت هناء اعظم ولما طاوع فؤادها فكر الافتراق عن ابويها . فاقامته في دارهم هي التي سببت كل العناء . وان كانت مدام لوكس تجهل انهُ هو الذي ادار عقل بنتها . ولا تسل عن دهشة غوستاف لدى العلم بان سوسانيت اخذت من منذ شهرين تحرر لوالديها بغير انقطاع ولكن بدون ان تدلهما على حقيقة عنوانها في باريس حذراً من ان يأتيا فيزوجاها بنيقولا . ثم اردفت مدام لوكس قائلةً

— ان ابنتي المسكينة لفي خطاء مبين فان نقولا توبت اتخذ له امرأة منذ حين وما عاد ليفكر بها . واما نحن فكنا نحرق في ايام هربها الاول الارَم غيظاً وانما من منذ ما

جعلت تكتب لنا رسائل مملوءة رقةً وحنوًا تسألنا بها عما
جنت عفوًا . . . لان قلبنا وحنَّ شوقًا اليها فيا قرب الله
يوم رجوعها لنضمها بالذراعين ونسامحها

فقال غوستاف في نفسهِ « هي ما زالت في باريس وما سعت من يوم هربها من دار الخرجية في ان تراني . فاواه من حرّ ناري فانها ما عادت تحبني . . . وعملت مثل باقي النساء فامالت اذنها الى كاشح غرَّها بلامع آلهِ . . . فلا افكر والله بعد الان بها — ويا ويل غباوتي اذ طمعت من فتاة بارعة في الحسن امانةً على الحب والعهد ووفاء . . . فلا بد من ان انساها . . . داعيًا لها بالسعادة . . . »

وقام الفتى من دار لوكس بعد ان نفح ماريجانَّ بما اعتاد من فائق كرمهِ . وسار من ارمنونفيل واعدًا بان يعود بعد الرجوع من اسفاره ليعلم ما اذا رجعت سوسانيت الى اهلها

فوصل بعد ايام الى ايطاليا بدون ان يعترضه في سبيلهِ شيء يستحق الذكر حتى وصل مدينة القياصرة فزار البلاط البابوي وكنيسة ماري بطرس وقبور الرسل الاطهار فراى في اخربة الهياكل والقصور لعظمة الرومان آثارًا وانما ما ابصر بين سكانها احدًا يستحق ان يكون لذلك الشعب الشهم الشجاع نسلاً . وراى منازل الجمهوريين

ورؤساء الاحزاب والمشيخة قد تحولت الى اديرة وقلايات

فجعل غوستاف يتأمل ذلك الشعب الهامل المنتشر في اجارع المدينة وازقتها يمضي العمر ولا مأوى له سوى خص رُفع على دعامتين ولا رداء يستره ويغطيه سوى عباءة غليظة محبوكة الاطراف بالحلفاء ولا غذاء يقيته الاَّ معكرونة بالماء مغلوة فقال صاحبنا في نفسه « أهولاء هم الرومان فيا لعظيم اسفي على مجيئي الى بلاد التليان اذ لا غرو ان افقد فيها بعض تصورات صباي وابدأ بالاعتقاد بان الثمرة الوحيدة التي ينالها الانسان من الاسفار هي العلم بالفرق الكائن بين الغابر والحاضر وبين اوهام التصور وحقيقة الاشياء ولا بدع في ان تكون الاسفار السبب الوحيد الذي يكسب الرجال خبرةً وسعة اطلاع ويجعلهم ارزن في تقدير الامور كلها ولا ريب في ذلك فانني ارى في كل المناظر ما يدعو الى تأملاتٍ فلسفية اذ نجد كنيسة مشيدة في محل كان من قبل للخيل مرسحًا وننظر محل قمار بجانب قلعة السلطة قائمًا وماذا عساه كان يفعل ذلك الجمهوري المفاخر لو أُوحي اليه بانه سيأتي على وطنه يوم يصبح فيه مرسحًا للاعبي القمار وللمشش واهل البطالة الخاسرين

ورحل غوستاف بعد ذلك عن رومية غير حافظ.

لها ذكرًا بعكس مبروك الذي اسف على الاعياد والاحتفالات والكنائس التي كانت تشغل افكاره حال هيامو في المدينة

فزار صاحبنا بعض بلاد ايطاليا ثم سار الى بلاد الاسبان والبورتغال والنمسا وبولونيا ثم الى انكلترا مصادفًا في كل بلادٍ حوادث لطيفة لا لذة للقارئ في بسط جميعها لانها مماثلة لبعضها بعضًا فلم يجنِ غوستاف في ايطاليا الى اشهار نفسو اذ كفاه حسان الطليان موءنة ذلك فسهولة الحب عند نساء الطليان وحسن تدربهنَّ على فهم اشائر الغرام امرٌ معروف عند كل الانام

على ان سوء الحظ قضى على غوستاف بجذب قلوب بعض النساء الى حدِ الجنون فما بارح ايطاليا الاَّ وفي جسمِ لطعنات الخناجر آثار وذلك ما كان في عزم المبروك ان يقولهُ لابيهِ حال عودته

واما في اسبانيا فقد دق غوستاف القيثارة وعشق من خلال الحجب فكان يذهب الى المواعظ ليرى الوجوه الحسان ويبادل رقيق النظرات فكانت تتبعه بعض العجائز العواهر الى منزله حاملات تذاكر حلوةً رقيقةً

واما اهل المسكنة في اسبانيا فكثير عددهم ولما كان مبروك يجهل ان التسول مهنةٌ وان شحاذي

اسبانيا نوم يجب مجاريهم بما يليق بهم من الوقار ساقه سوق حظه الى ان يدفع يومًا فقيرًا كان يسألهُ « الكاردينادس » صدقةً فاجتمع عليه من المتسولين عصبةٌ يوسعونه ضربًا وشتمًا فلما رآه غوستاف بين هؤلاء الاشقياء اسيرًا حاول تبديد شملهم بقوة عصاه فعد القوم ذلك اهانةً لعوائد البلاد ولطباع وامتيازات اهل السؤآل من الاسبان وليس في اولئك الناس من يعي الحق عندما يتوهم ثلم فخره فيريدون اظهار شهامتهم بالانتقام السافل وعزة نفسهم بالتوحش

فجاء على المجتمعين نفرٌ من الحراس المعروفين « بالجوازلوس » واستاقوا غوستاف ومبروكًا والمتسولين الى ساحة القضاء في « الكوريخيدور » فرأى الحاكم ان ضربه الاسباني بالعصا شيء منكرٌ وما حسب لاسنان مبروك المكسورة واذنيه المدميتين حسابًا فاغتاظ غوستاف من ذلك وجعل يشتم ويصيح فنوى « الكوريخيدور » على ايداعه السجن لو لم تنجه من طائلة ذلك سيدة شريفة اتت في تلك الدقيقة فرأت غوستاف وتذكرت انها انما سبقت لها معهُ بعض العلائق وهي لا تجهل كيف انهُ يحسن مكافأة ما يُقدم لهُ من الخدم فبسطت عليهِ جناح حمايتها وخلصته وترك غوستاف اسبانيا ممتاه من بلادٍ لا تقوم شرائعها الا

بارادة الحكام والرهبان والمتسولين . وقد لقي صاحبنا في بلاد الجرمان نساء ذوات حسن باهر ولطف ساحر وازواجًا بتدخين التبغ مولعين فحلّ في احدى مدائنها عند غادةٍ حسناء مغرمةٍ برقص الفالسر تستنبط لها في كل يومٍ طرزًا جديدًا لان الفالسر لا ترقص عند الجرمانيين مثل ما ترقص عندنا . فما كانت مضيفة غوستاف لتشكو من الرقص عناء وفاقت بقوتها جانجان كورتيبون . وكان زوجها يضرب اثناء رقصها الموسيقي . ومبروك يحضر بمثائل في الناي على الخادمة الخبيرة بدق الاوتار كلها

غير ان الفالسر اولت غوستاف عناء وضاق صدر مبروك من تعلم ضرب الناي فترك صاحبنا الارض النمسوية مقتنعًا بأن قوة نسائها لا تفوقها في الرقص قوة وسار المبروك مسرورًا لتعلمهِ ضرب الموسقى فكان يقول لمولاه «لله ما املح هذا البلد فان النساء فيهِ يفهمننا بدون ان نعرف من الالماني كلمةً ولا نكاد نلفظ امام الرجال كلمة هَيْدِنْ او موزَرْتْ حتى يكلمونا ساعتين غير تاركين لنا الى الجواب مجالاً »

— من ذا الذي بكلِ ذا اعلمكَ

— السمينة التي كانت لي بضرب الناي استاذةً وهذه هي

الكلمات الوحيدة التي تعلمتها ولا اعلم لا والله معنا ها • ولكن عندما كنت انت يامولاي ترقص مع صاحبة البيت • كانت الخادمة تحادث زوجها بالهَيْدِنْ والموزَرْتْ فيأخذ حين يسمعها كمنجته ولا ينقطع الاّ ليشرب من آن الى آخر • • فلله دره من آلاتي مهول • • •

وسار غوستاف في مركب الى بلاد الانكليز فربط المبروك بلوح جسمه ليكون آمنًا شر الغرق في حال ما لو ابتلع اليمُّ مركبهم • غير انهم وصلوا بدون ان تثير عليهم انواء بعد اربعة ايام قضاها مبروك بقيء مضنك اوهمه حال نزوله الى البر ان قد طال لسانه اصبعين

والاقامة في بريطانيا العظمى لا تروق الاّ لكل متيم بسباق الخيل وعراك الديوك والرهان والبونش ولحم البقر المحمر ولا غرو ان يرى الفرنسويُّ قيام السيدات عن مائدة الطعام حال اكل الفاكهة شيئًا غريبًا اذ يظل الرجال وحدهم مستسلمين الى عوامل السرور متولدةً عن مشروبات حارقة لاكبادهم غير مظهرين اسفهم على غياب الجنس الجميل الذي يشير هو اليهم باغتنام الحظ والانشراح اذا امكن ان نسمي الشرب حتى الوقوع تحت المائدة حظًا وانشراحًا

ولم ترُق منتزهات انكلترة لسائحنا الفتى حيث لا يشم

الناس الهواء الاّ في المقابر القاء لحمل الهم عن عاتقهم ولان تلك المقابر الجميلة يرى فيها تماثيل وازاهر تؤثر في النفوس جدًا . وإنما يجب ان يكون المتنزه انكليزيًا حتى لا تركبه من تلك الفسحات السوداء التي تسوء بالنواثر عقباها ولو كانت في بعض الاحيان صالحة

ولقد اعجب غوستاف حد الانتباه الذي يصل نظر الانكليز اليه فهم يتأملون صغائر الأمور ويدققون ملاحظتهم لكل العوائد

ثم استغرب ضحكهم عليه في بعض الجمعيات الزاهرة عندما كان يدير الشاي في الصحن ويضع ملعقته في الفنجان اشارة الى انه قد اكتفى

فقال غوستاف «اذ صح من ان كبار الامور لا تأتي الاّ من صغارها فلا بدع في ان يصبح الانكليز اعاظم جدًا »

وقد سهل على مبروك التخلق بالعادات الانكليزية فكان يأكل في اليوم خمس مرات ويشرب الشاي في كل ساعة ويأخذ في المساء اكثر من بونش واحد فاتسع كرشه وحسنت صحته . ويوم علم من سيده خبر عزمه على ترك بلاد الانكليز كان يومه عليه اغبر

وكانت فتيات الانكليز حسانًا والفتيات في بريطانيا

متمتعات بحرية لا شبيه لها فهن يخرجن مع الشبان وحيدات بدون ان يخشين لعرضهن اثلاماً فيذهبن معهم الى النزهات والمراسح والمراقص . غير انهن يختلفن بعد الزواج جداً فلا يخرجن من البيت الاّ بصحبة ازواجهن ويصرفن كل عنايتهن الى حال العائلة . ولم تكن عشرة بنات الانكليز لتنسي غوستاف فرنسا الغالية فقال لمبروك يوماً

ــ اتعلم ان قد مضى على خروجنا من بلادنا ثلاث سنين

ــ أبالله يا مولاي ثلاث سنين ... فلا بدع في ان يراني والدي كبيراً سميناً ويجدني جميلاً لطيفاً .

ــ وتصعب عليه معرفتك ...

ــ وقد اكسبتني الاسفار خبرةً ...

ــ اقمنا في ايطاليا ثمانية شهور وستةً في اسبانيا ثم في جرمانيا سنةً وثلاثة اشهر في بولونيا وها قد مضى علينا شهران ههنا بين اكل البفتيك والروزبيف .. حتى طلع من عيني .. واضف الى ذلك الوقت الذي صرفناه في اسفار أخرى من عهد سفرنا من باريس فمجموع اكثر من ثلاثة اعوام فاعدَّ يا مبروك صناديقنا فلقد عزمت على الرجوع الى خالي

— آه ولا اسفي نسافر الان وقد بدأت أُعارك بلكم الايدي (بوكس) جيدًا

وقد اقتبل غوستاف في اثناء اسفاره رسائل من خالهِ كثيرة علم منها ان الميرالاي قاسى آلام عياء طويل نجا بحمد الله منه . وكان الخال يسأل ابن اخته عما اذا كان وجد زوجةً . غير انه جعل يظهر في رسائلهِ الاخيرة شوقه الى رؤيته بحيث ما عاد غوستاف يود تطويل اسفاره لأن الجري من بلدٍ الى آخر كان اضناه . واتعبه ما حصل لهُ من نوادر الطيش الكثيرة . وكرهت نفسه سابق حظوظه لان الشهوات السافلة التي لا تعلق للقلب والروح فيها تنتهي حال سكون ثورة الصبا الاولى وتختتم باضناك فاعلها وعليهِ فلم يعد غوستاف ذلك العفريت الذي كان يثب من الشبابيك ويوقظ حيًا في باريس كاملاً ويبارز رجال العسس بل اصبح ذا عقل رزين متبصرًا وحريصًا ولا نريد انه ادار عن الحسان وجهه . بل صار يشعر بوجوب انتقاء المحبوبة ويميل الى عقد عهد حب مكين اذ بعد ان خُدعت نفسه بالظواهر الكاذبة مرارًا غدا يقدر الحب الصادق قدره ويتوق الى المسرات الطاهرة مسرات المودة والصداقة فقال لمبروك

— هيا بنا نسافر ونعود الى فرنسا العزيزة . انما اعود الى خالي وما وجدتُ لي زوجةً تناسبني وقسماً بالحق انني لم اتعب في الاسفار نفسي بالبحث على امرأة كثيرًا اذ انني افضل الزوجة الفرنسوية على كل ما عداها من نساء الشعوب الاخرى . فالايطاليات شديدات الحرارة والاسبانيات غيورات والنمسويات يحببنَ الرقص كثيرًا والبولونيات باردات والانكليزيات كثيرات الحس والشعور

— صدقت سيدي واقر انا ايضًا بانني لم ارَ في البلاد التي زرناها ما يستحق الذكر سوى الذاي والما كل العظيمة

فحيا غوستاف شطوط النمس وامتطى متن البحار في مركب اوصله الى كاله فوطئ البر مفعم الفؤاد سرورا يفكر بقرب رؤية خاله واصحابه القدماء وكان مبروك نافذ الصبر يود لو طار ليروي لوالده عن كل ما سمعه ورآه بل ربما عن الذي لم يسمعه ولم يره

*

*

١٣

اكان في حسبانك ...؟

ومذ نوى غوستاف على السفر اعلم خالهُ عن عزمهِ فما نزل في كاله حتى رأى شابًا بهيَّ الظاهر عليهِ سمة سائقي العربات يتقدم نحوه قائلاً

— أ انت الموسيو سانريال

— نعم انا فما تريد مني

— كنت يا سيدي في انتظار مجيئك مبعوثًا من طرف سيدي خالك الميرالاي مورنفال لاعطيك هذا الكتاب

— معك من خالي كتابٌ ...فعليَّ بهِ حالاً

واخذ غوستاف الجواب فقرأ ما يلي

«لا بد من ان تكون يا حبيبي غوستاف تعبًا من الاسفار متشوقًا الى سرعة العودة الى باريس . فارسلت اليك خادمي جرمن الحديد بعربة من عربات البوستة تسرع بك اليَّ لاضمك بذراعيَّ»

«الميرالاي مورتفال»

فقال غوستاف «والله ما كنت لا تمنى على ذلك مزيدًا ولقد احسن سيدي الخال جدًا فانني تعبتُ من ركوب الخيلْ فضلاً عن ان جوادي مات في جرمانيا . وهكذا ادخل باريس بهيأة العظمة» وسأل جرمن عما اذا كان آتيًا بعربة البوستة فقال

— نعم . وهي . . تحت أمرك سيدي . . .

فسرَّ غوستاف وامر جرمن بان يسير به الى النزل الذي اودع العربة فيهِ وبعد ان تغذى هنالك جيدًا ركب مع مبروك واصدر الى جرمنْ امره بالسير سريعًا

فجلس مبروك ازاء سيدهِ وقال «اطال الله عمر سيدي خالك فلقد اصاب في ارسال عربةٍ لركوبنا ففيها نفوز بكل الراحةِ ونصل باريس بغضاضتنا»

فلم يجب غوستاف على هذر المبروك لأنهُ كان غارقًا في بحر تأملاته مفتكرًا بكل الاشخاص الذين تركهم في فرنسا

وبالتغييرات التي ربما تكون حدثت بعد فرق ثلاث سنين في كل معارفه ولم تقف العربة في اول يوم بالمسافرين الاّ عند تناول الطعام وتغيير الخيل وكان غوستاف راضيًا عن جرمن جدًا لسرعة سيره التي فاقت الريح حتى فكر غوستاف عند غروب اليوم الثاني انهُ صار على مقربة من باريس فامتلأ قلبه سرورًا واخرج من الشباك رأسه فخال لهُ انه سائرٌ في غير الطريق السلطانية فقال لجرمن

ـ في اي الارض نحنُ

ـ على مسافة ست ساعات من باريس تقرب من مونمورنسي . . .

ـ أانت متأكد من عدم زيغك عن السراط السوي . . .

ـ نعم سيدي وانما قد سرت في سبيل مختصر نصل منهُ حالاً

فقال مبروك جزعًا ـ ويلاه يا سيدي فعسانا ان نضيع عسانا

ـ خسئت يا بليد ومِمَّ تخاف

ـ الله الله يا سيدي فان الظلام سائد ولا ارى هنا دارًا ولا سكنًا . . .

ـ اوَ نرى المنازل على طول السبيل . . .

— ولكن ما دام يقول لنا اننا لسنا على السراط المستقيم

— اخرس ونم ...

— رحماك مولاي فالخوف يلقي بيني وبين النوم حجاباً

وغدا جرمن يسير بالعربة الهوينا ثم وقف بغتة يقول لمولاه

— ارى اصابة ظنك يا سيدي فقد ضللتُ سواء السبيل وما عدتُ اعرفُ اين نحن من الارضين ...

— كنت على يقين من ذلك

فصاح مبروك — ونقضي الليل في البراري فيا ويلي

فقال غوستاف — لا بأس يا جرمنْ فسر الى الامام لتسأل عن الطريق من اول بيت تراه

— غير ان الشيطان مدَّ يا سيدي اصبعه ... فلقد طار نعلُ احد الحصانين فاضحى يخطو بصعوبة ولو داوم الجري لخشي عليه من العرج

فقال مبروك — لا غرو انك سائق بليدٌ حتى اضعتَ نعلْ حصانك والقيتنا في حيرةٍ عظمى ...

وكان غوستاف في الحقيقة حائرًا لا يدري ماذا يعمل فعرض جرمن عليه ان يذهب للاستفهام عن الجهة التي كانوا فيها إذ آنس في الشمال نورًا يضيء فيستهدي من

هناك الى السبيل

فقال غوستاف له « رح وان سمحوا بالمبيت لنا قضينا الليلة عندهم هذا اذا لم يتيسر لك نعل الحصان »

فذهب جرمن ثم عاد الى غوستاف حالاً قائلاً « ان النور الذي شامه صادر عن منزل بهي الظاهر يسمح للاغراب بالمأوى فيه عن طيبة خاطر » فقال غوستاف « هيا بنا نطلب المأوى واما انت يا جرمن فسر الى القرية القريبة في طلب بيطار فلست اياس من الوصول الى باريس في نفس هذه الليلة » فاجاب جرمن بالامتثال وسار غوستاف في سبيل دار الضيافة والمبروك يتبعه فرأى داراً بهية تدل هيأتها على انها لقوم موسرين وقرع الباب ففتحت له خادمة عجوز فقال

— علمت يا سيدتي ان قد سمح صاحب الدار لي بالاقامة هنا برهة ريثما يتيسر نعل خيلي

— نعم سيدي فتفضل بالدخول واتبعني

قالت الخادمة ذلك وسارت امام غوستاف ومبروك حتى اوصلتهما الى الدور الاول وفتحت لهما باب قاعة ثمينة الفرش والاثاث باهية الزينة فجعل المولى والخادم يجيلان حواليها الانظار فلم يبصرا احداً . فكلمت الخادمة غوستاف

بالجلوس وخرجت من الحجرة تاركة لهما بها نورًا

فجعل مبروك يلاحظ امتعة الحجرة واثاثها قطعةً بعد قطعة ثم قال

— لا بدع في ان يكون صاحب هذا البيت عظيما نبيلا

— وابلي ان نراه الان اذ اود ان اقدم له تشكراتي

ثم عادت الخادمة ببعض المشروبات المرطبة فسأل غوستاف .

— ايسمح لي بحظ تحية مولاك

— هذه الدار يا سيدي مأهولة بسيدة وخدمها ليس الأ . . . وهي تمنح المسافرين ضيافةً عن طيبة خاطر غير انها لا تحادثهم ولا تبدو امامهم

— عجبًا أفلا أسعد بشكر مولاتك

— ذلك يا سيدي بعيد المنال

— ولا برؤيتها

— هي لا تقابل احدًا

— امرها والله عجيب

وهمّ غوستاف على توجيه اسئلةٍ أخرى واذا بفرقعةٍ صادرة عن خارج الدار فقفز المبروك جزعًا ونزلت الخادمة لتعلم ما الخبر فبدا جرمن امام غوستاف مرتعدًا فقال

هذا له

ــ ماذا دهاك

ــ لُمني يا مولاي ما استطعت فانتَ في حلٍ من لومك .. واحمد الله على خروجك من العربة قبل حدوث الحادث وانا والله بريء

ــ افصحْ فكدني

ــ كان في الارض حجرٌ ما انتبهت اليه ... اذ كنت قائدًا احد الحصانين من زمامه واذا بالعربة قد قلبت ...

ــ قُلبت ...

ــ نعم سيدي قُلبت . فطارت منها عجلة وانكسر محورها ..

فضرب مبروك الارض برجليهِ حنقًا وصاح اسفًا وغمًا وجعل غوستاف يضحك مقهقهًا فقال مبروك

ــ عجبًا تضحك سيدي ...

ــ اضحك على امال خالي الذي ارسل جرمن لي بعربةٍ بوسنةٍ ليراني عنده سريعًا ... ولقد افلح والله فيما نوى .. ولكن اين اقضي الليلة ...

وكانت الخادمة الهرمة حاضرة كلام جرمن من اوله فقالت لغوستاف

— نفضيها هنا يا سيدي فعربتك محتاجة الى الاصلاح ويستحيل عليك السفر ... فابقَ هنا ولا ينقصك في هذه الدار شيء فانت فيها على الرحب والسعة ولا خوف من ان تسبب لسيدتي ادنى عناء فهي قد كلفتني بان اقول لك انك مخيّر في الاقامة هنا بقدر ما يحلو لك ...

— والله ان سيدتك لصاحبة لطف وفضل عميم ... وما دامها تسمح بالاقامة لي ... فلا ارى والله من قبول الضيافة التي تلطفت بعرضها عليَّ بالنيابة عنها بدًّا

— فانا ذاهبة لاهيء لك يا سيدي حجرة ... واخرج لخادمك ... وآتيك بالعشا بعد قليل

ثم خرجت فتبعها جرمن ليدخل العربة والخيل الى الدار لان الوقت كان ازف يستحيل معه الذهاب الى القرية في طلب الحداد والبيطار فاتكأ غوستاف على كرسي وقال لمبروك

— ارأيت كيف أسعدنا بصاحبة بيت لطيفة كريمة

— قسمًا بالله يا سيدي ان الحظ لقد اسعدنا فأتى بنا الى دار سيدة بالغة في اللطف والكرم ... غير انني ارى في الامر سرًّا محجبًا ...

— سرٌّ اشغل فكري ... فان هاته السيدة تقبل

بالايناس ضيوفها ولا نبدو لهم ابدًا . . .

— لانها يا سيدي شنيعةٌ

— لست من رأيك . . . وانما اجد في عملها مشابهة لما برد في القصص . . . ولو كنت في ابطاليا لرأيت في هذه الحركة غنيةً لطيفةً . . . ويا عجبًا من غرابة طبعنا فعندما يحجب عن انظارنا شيء نذوب الى رؤيته شوقًا . . . فانا اعطي الان نصف دمي لارى هاته السيدة المحجبة . . .

— حلمك يا سيدي فعلى السلم صوت اقدام . . . ايا لله ما ابدع ما ارى وبالله فهو من اشهى ما يشتهى

— أرأيت امرأةً حسناء . . .

— لا يا سيدي وانما ابصرت عشاء فاخرًا أُدخل في الحجرة المجاورة

— بليتَ وعشاؤك بالآكلة

فدخلت الخادمة وقالت لغوستاف ان الطعام جاهزٌ فدخل قاعةً أُخرى جلس فيها على مائدةٍ فاخرةٍ . فجعل يأْكل ويوجه الى الخادمة كثيرًا من الاسئلة غير ان هاته العجوز كانت حكيمةً محترسةً فما تمكن الاَّ من العلم بكون صاحبة البيت صبيةً وان عندها ولدًا

وبعد انتهاء العشاء اوصلته الخادمة الى حجرةٍ للنوم

جميلة وقالت له ان خادميه سيناماك في الحجرة الكائنة فوق غرفته يسهل عليه نداؤهما في حال ما او احتاج اليهما

وخرجت فأمسي غوستاف وحيداً مشعراً بلزوم الراحة بعد عناء ركوب العربة مدة يومين . غير ان رغبة النوم كانت عنه بعيدة فان الليلة كانت لطيفة والسماء رائقة

قد حسبنا النجوم فيها فصوصاً
من عقيق وجرمها من حرير

ففتح غوستاف دفة الشباك وتمتع برؤية كل المناظر البادية امامه بمساعدة نور القمر الذي كان آخذاً بالبزوغ . فرأى جانباً من حدائق الدار وابصر على الجانب الايمن قسماً من البيت منا ا فقال لا شك انه القسم الذي تقيم به صاحبة البيت المحجبة المستعفية من ان نشكر على كريم ضيافتها فاحدق فتانا ببصره في النافذة المنورة وود لو تمكن من دخول الحجرة غير انه اشعر في الحال بخجل زائد لشدة رغبته في اكتشاف حالها وقال « عجباً لي أمن اجل اباة امرأة من ظهورها على رجل غريب الهب بالافكار دماغي واقدّر من الاسباب الوفا . . . مفتكراً بانها آية الحسان واعجوبة الزمان . . . فيالله من فرط فضولي . فلربما هي امرأة مثل غيرها تعمل المعروف ولا تود ان تحادث من يسوقه القدر

الى المبيت في دارها وليس في ذلك سرٌ ... ولا لوم على من يلومني بعد العلم بانني زرت اركان اوربا الاربعة... فيا نسمة الوعي عودي ... وها انا ذا انام فذلك خيرٌ من وقوفي هنا اتأمل القمر وحجرة تلك السيدة »

وقفل شباكه ... واذا برنة عودٍ دخلت اذنه فعادت بسماعها كل رغبتهِ وتغلبت على قواه فعاد الى الشباك وجعل ينصت بكليتهِ فسمع « بشرف » امتزجت بالرقة انغامهُ وما كان في نقر الاوتار دليل تمام الخبرة المذهلة للسامعين وانما كانت حلوةً رنانةً ممتزجة بحسن الذوق ورقة الهيام ثم مازجها صوت الطف غنى بحلاوة جارحة

بتُ والهمُ يا حبيبي ضجيعي وجرت مذ نأيت عني دموعي
وتنفستُ اذ ذكرتك حتى زالت اليوم عن فوادي ضلوعي
يا حبيبي فدتك نفسي واهلي هل لدهر مضى لنا من رجوع

فاحس غوستاف من سماع صوت ربة الحجاب بسرور فائق وقال لا بد ان يكون الصوت صوت صاحبة الدار لان الخادمة قالت له ان سيدتها مقيمة هنالك وحدها. ولكن لم يطل واأسفاه سروره فالغناء قد انقطع وما عاد يسمع لا صوت ولا عود . فظلَّ غوستاف منصتًا متمنيًا مدهوشًا بحلو احساسات ما ولدتها الموسيقى من قبل عنده

وبعد ان لبث أكثر من ساعة مستسلمًا الى حلو افكاره مؤملاً عودة الانغام على غير جدوى إضطجع على سريره مصممًا على شمل كل الطرق الموصلة الى التعرف بتلك السيدة التي تغني بحلاوةٍ ورقةٍ ونام مفكرًا بالمضيفة السرية

ثم استيقظ في صباح اليوم التالي باكرًا جدًا ونزل من الحجرة فصدف الخادمة وسألها

— أتسمحين يا عزيزتي لي بدخول الحديقة

— نعم سيدي فتفضل بالدخول ايان شئت

— وعسام اهتموا في تصليح عربتي

— نعم مولاي وإنما لا يتم اليوم تصليحها

— غير انني اخاف من ان اضايقكم بزيادة الاقامة هنا . . .

— ولماذا يا سيدي

— لأن بقاءي يعد تثقيلاً على لطف مولاتك . . .

— حاشا يا سيدي فهي امرتني بان ارجوك الاقامة عندنا حتى يتم تصليح عربتك

— وإنما اخشى من ازعاجها ما دامها تأبي مواجهتي . . .

— لادخل لذا يا سيدي بل قيامك عندنا يسرها . . . وها انا ذاهبة لاعد لك فطورًا

قالت ذالك وانصرفت فدخل غوستاف في الحديقة قائلاً «يالغرابة شأن هذا البيت يقابلوننا فيه بمزيد الاكرام والكرم ثم لا يسمحون لنا بالقيام بواجب الثناء ولا يسعدوننا برؤية من تواليننا بالطافها فاقيم هنا يوماً آخر وعسى ان يتيح القدر لي لقاء ربة الحجاب»

وسار حتى وصل بقعةً زاهرةً زاهية بطيب ازاهر عاطرة فرأى فتاةً تبلغ بالكاد ثلاث سنين ذات جمال باهر ساحر تجري في البستان وحدها تقتطف زهوراً لتعمل منها باقةً فدنا غوستاف منها وقبلها قائلاً

— ما تعملين حبيبتي

— فابتسمت الفتاة واجابت « اقتطف لوالدتي زهوراً»

— واين امك

— في الدار

— وهل تحبينها حبًا عظيما

— نعم . . . واحب ايضاً ابي

فعجب غوستاف لقول الفتاة انها تحب ايضاً اباها . . .

وقال ان الاب اذاً موجودٌ ولكن لماذا لم يكن في الدار مع زوجته . . . ولا شك ان رفض تلك السيدة لمقابلة الزائرين ناتج عن غيابه . فتودد الى الطفلة اللطيفة وحاول

جرّ الحديث معها على ما يود فلم تجبه لانها كانت صغيرة جدًّا لاتحسن رد جواب بل تخلصت من ذراعيه وعادت الى الدار سريعًا

فعاد غوستاف ايضًا وجلس يتناول الفطور فاكرًا في الطفلة التي اذكرته بجلوسها معها اشياء كثيرة اضافها على ذكر صوت امها الذي رنّ بالامس في صميم فؤاده فغرق في بحور اشجانه وافكاره واستخال على المبروك وجود سبيل لتسليته ومحادثته فجعل يأكل بدلاً عن اثنين مسرورًا لانهُ جاء من بلاد الانكليز متعودًا على الاكل في كل ساعات النهار

ثم قام غوستاف عن المائدة فجاءةً وقال

— ربي كيف اراها . . .

— ترى من ياسيدي

— ربة البيت . .

— سبحان الله فقد رأيتها انا . . .

— انت يامجنون رأيتها ولا تقول لي

— عنيتُ بقولي رأيتها . . انني ابصرت وهي سائرة في الحوش قفاها وسمعتها تأمر الخادمة بان تحضر العود لها في غرفة الجنان

— اسمعتها تقول ذلك حقًا فلا بد والله من ان اراها

انا ايضاً

قال ذلك ونزل الى البستان حالاً فرأى في طرفهِ بيتاً ارضياً برواقٍ جميل فسر اذ انهُ يتمكن بذلك من ان يرى ما بداخل الحجرة من الشبابيك فدنا من البيت ثم وقف ينصت فلم يسمع احداً فرجع على الاعقاب قليلاً واختبأ وراء اعشاب ملتفة الاغصان حذراً من ان يرعب بحضوره الغادة الحسناء

ثم سمع في الحال صوت اقدامٍ فزحزح الاعشاب قليلاً ورأى صبيةً تقود الطفلة من يدها فما تمكن من رؤية وجهها لانهُ كان مستوراً تحت حجاب كثيف . فدخلت الدار من دون ان تمكنه من تحقيق معانيها . وما ابصرها للبيت داخلة حتى دنا منه فرأى المفتاح في الباب متروكاً فما شاء الدخول لانهُ يعد تطفلاً وبالاخص لان تلك السيدة لا تقبل زيارة احدٍ وانما رأى ان لا باس بالسماع فوقف بين الاعشاب والازهار جزوعاً وما لبث ان رن العود في اذنهِ وسمع صوت غادة الامس تغني بصوتها الشجي الحنونِ

اعتضتُ من وجه خلي بعد فرقتهِ

كأساً تدفق من حزن أجرّعهُ

كم ذا اقطع ايامي وانفدها
حزنًا عليه وليلي لست اهجعهُ
على الليالي التي اضنت بفرقتنا
جسمين تجمعني يومًا وتجمعهُ
وان يدم ابدًا هذا الفراق لنا
فما الذنب بقضاء الله نصنعهُ

فتأثر غوستاف من حنون غنائها وصار كله اذانًا تسمع واذهانًا تضرب في وادي الذكرى ليعلم المكان السعيد الذي سمع فيهِ ذلك الصوت الانيس المفعم قلبه حبورًا وسرورًا ثم جعل يطوف حول البيت محاولاً اكتشاف ما فيهِ من خلال شعريات الشبابيك فما افلح لان النوافذ كانت محجوبة بكثيف الستائر ووقف مكتئبًا واذا بالغناء قد انقطع واتت الغادة الى نافذةٍ ففتحتها فدنا غوستاف من الشباك المفتوح برشاقةٍ وافقل الشعرية برقةٍ فتمكن من النظر الى داخل الحجرة جيدًا

غير انه لم ينل من هناك ما امل لان صاحبة البيت وان تكن جلست ازاءهُ غير انها قد ادارت ظهرها الى النافذةِ فلم يفضِ من رؤية وجهها اربًا وانما رأى الطفلة وقد جلست على حجر والدتها تلعب بشعورها الجميلة قائلةً لها

بجنون صوتها

— لِمَ انقطعتِ يا اماه عن الغناء ولزمت الحزن والبكاء فما الذى يحزنك

فلم تجب الام الا بذرف سخين دمعها وغمر الفتاة بحار قبلاتها فارتعدت فرائص غوستاف وكادت تبطل صواعد انفاسه اذ شعر بانه انما كان لتلك الدموع سببًا ثم ابصر الطفلة وقد تركت حجر امها تقول لها

— اما تعلمين انني قادرة على ايقاف جاري دمعك

قالت ذلك وراحت الى صورة كبيرة مركونة على كرسي ما انتبه غوستاف من قبل اليها فحملتها بصعوبة كلية لانها كانت تزيد بحجمها عن جسمها غيرانها تمكنت من ايصالها الى امها فوضعتها امامها وجعلت تقطف لها منها على رؤس الاصابع قبلات توصلها الى فيها فضمت السيدة للفتاة ذراعيها وضمتها نغمرها بجنون لثمانها ثم اوقفتها امام الصورة وقالت لها

— توسلي يا ملاكي الى الله من اجلي عساه ان يسمح بان يظل ابوكِ لعهد حبي حافظًا وان يعود يومًا ما الينا

فلم يتمكن غوستاف عند سماع ذلك من ضبط اشجانه . . فهو كان على يقين من معرفة الصوت المتكلم فتعلق بالشباك ليرى الصورة المذكورة ايضًا فعرفها جيدًا . . .

وخانة القوى فجرت دموعة ... وضعفت ركبتاه ... اذ كان هو... بذاته على ذلك اللوح مرسوماً ... ولكن ترى من تكون هذه الصبية ... ومن هي تلك الفتاة ... فحبا غوستاف حتى دخل الحجرة ... مندهشاً يكاد لا يصدق عينيه ففيها رأى سوسانيت ... سوسانيت التي القت بنفسها بين ذراعيه تلثمة وتقدم له ابنته فسقط المسكين على الكرسي الذي كانت جالسة عليه ... لعجز قوى قلبه عن احتمال عظيم احساسات سروره

وما لبث ان فتح في الحال باب خزنة صغيرة ظهر الميرالاي مورنفال منه وتقدم نحو غوستاف قائلاً

ــ اهلاً بك يا ابن اختي العزيز وقد احسنت بالرجوع وحدك اذ كنت مذخراً لك ابنة وعروساً

فما تمكن غوستاف من الاجابة بل ظل ضاماً سوسانيت وابنتها بذراعيه يغمرها بقبلاته الحنونة فابتسم الميرالاي وقال

ــ لا ريب انك تتوق الى العلم بكيفية تحول حال الفلاحة التي اضعتها في باريس الى الغادة التي تراها امامك غيسانية مهذبةً محلاة بحلى ارفع اهل الترف فاعلم الامر بايجاز ... فانّ البوبجي الصغير الجالس على باب داري ... انما كان سوسانيت ...

فصاح غوستاف منذهلاً ـ سوسانيت وانا ماعرفتك ...

ـ لا ذنب لك يا حبيبي فانني بدلتُ صورتي جداً ... وكنت بالدهان الاسود مطلية فاستحال عليك معرفتي فضلاً عن انني ما كنت افوه امامك الاَّ بكلام قليل ...

ـ وما الذي دعاك الى ابدال شأنك ...

ـ حب البقاء بالقرب منك دواماً ... لاراك كل يوم ... ولا ابتعد عنك ابداً ...

ـ والهف قلبي يا سوسانيت عليك فكم سببت من العناء لك ...

ـ وقد صممت على ذلك العزم من عهد هربي من عند مدام هنري فبعت وغيرت كل ما كنت املك بثياب بو يجي ... غير اني كنت واحر قلباه اماً ... واحمل في احشاءي ثمرة حبنا ... ولكم دفعت حين كنت تدنو مني برغبة القاء نفسي بين ذراعيك لاوقفك على حقيقة امري وانما خشيتي من ان يبعدوني عنك ثانية كان يحول دون انفاذ رغائب قلبي

فقال الميرالاي ـ كانت المسكينة تخشى فرط بأسي وما انا والله قاس بقدر ما خمنت ... وقد تبعتنا يوم

سافرنا من باريس وركبت وراء عربتنا التي قلبت في سنجرمن . ولا بد ان تذكر يا غوسناف انني ذهبت الى البوبجي ارضاء لخاطرك . فتأمل عظيم اندهاشي لما عرفت فيه تلك الفتاة التي طالما همني امرها فاجتهدت في تسكين اوجاعها لانها كانت تطلب الموت لسفرك بدون ان ناخذها معك . فعزيتها واملتها بانها سوف تراك مقسمًا لها بانني لا اهمل شانها ابدًا غير اني اخفيت عنك سرّ الحادثة وسافرت الى باريس مصحبًا البوبجي الصغير معي واقر الان بان امتثال سوسانيت لارادتي وعظيم حبها وصدقة وعفتها وصباها كل ذلك امال قلبي اليها فادخلتها داري وبذلت كل جهدي في تعليمها وتربيتها فكانت تتعلم بسرعة ونشاط وسهولة وتشغل اوقات فراغها بمحادثتي عنك . ثم ولدت هاته الفتاة التي احببتها حالاً لمشابهتها لها بالحلاوة والبهاء . وبلغ سوسانيت بعد ذلك ان امها مريضة فتركت كل شيء لتطير اليها واستأذنتني فاجزت ذلك لها وقضت أُمها المسكينة وهي تسامحها على هفوتها التي قادها الحب اليها . فاقامت سوسانيت في ارمونفيل غير راضية بترك ابيها الذي لم يبقَ لهُ تعزية سواها وما مضى عليها في القرية ثمانية شهور حتى أُصيب والدها المسكين بحمى خبيثة لم تمهلهُ فقضى بين

يديها مترضياً عليها فاسرعت انا اذ ذاك الى ارمنونفيل واجبرت سوسانيت على الرجوع معي ولقيت في اقناعها نصباً لانها ما كانت تريد ان تفارق القرية وقبر والديها . وانما حدثتها بشأنك فتغلب الحب على ما سواه من احساسات فؤادها وكنتُ ازداد كل يوم اختباراً لها وثقةً بفضائلها وحسن صفاتها . واني لولا عنايتها وسهرها عليَّ اناء الليل واطراف النهار لبليت بمرض وبيل . فاثرت عواطف خضوعها وزائد حنوها في نفسي واصبحت اتمنى الاّ تجد في اسفارك امرأة تتسلطن على قلبك وكاشفت سوسانيت بافكاري فيما يتعلق بشأنها ... وانت بتقدير عظيم ما اظهرت لذلك من فائق السرور ادرى ... غير انها رجتني الاَّ افاتحك بالامر اذ كانت تود ان تدع فؤادك حرًّا وان لا تصبح حجر عثرة في سبيل عقدك لعهد حب جديد وانما كانت تصغي لتلاوة رسائلك بكل تشوق لدائم خوفها من ان تسمع ان قد وقع على واحدة اخرى اختيارك ... حتى اعلمتني من ثم بخبر عودتك فارسلت اليك جرمن وافهمته حيلة احضارك لهنا اذ اردت ان اثير ثورة قلبك ... واعظم تاثير الامر فيه لتقدير قيمة السعادة التي ادخرتها لك فكن يا ولدي سعيداً ... انني القي بين يديك طفلةً محبوبةً ورفيقةً لطيفةً

ترى وقتك بالقرب منها قصيراً الانك اصبحت رزيناً ولأنها حوت من الفضيلة والمحاسن ما يزيدها في عينيك اعتباراً فيمكنك ان تتمتع في حجر عائلتك بسعادة ايامك حتى ولو تحدثت معها في ما عدا الحب ... لان التحدث بلطائف الحب لا شك حلو وانما لا يجب ان نتحدث دائماً به ليبقى لنا من لطيف موضوعه شيء لا نبحث دائماً فيهِ ولا تعمل مثل ما كنتما تفعلان يوم جاءت سوسانيت لاول مرة داري

فعانق غوستاف الميرالاي خاله قائلاً

ــ ساكون يا سيدي الخال باذن الله ثابتاً اتمتع بلذيذ عيشي بينك وبين سوسانيت ، بنتي واجد السعادة التي لم اهتدِ في طيشي وجنوني اليها

فاخذت سوسانيت يد حبيبها وقالت ـ فديتك ياغوستاف فانني ما كنتُ لاظن بمثل هاته السعادة ... بل من كان يقول حين جئت قريتنا اني ساصبح لك زوجةً ...

فقام الميرالاي يعانق الحبيبين و يقول لسوسانيت

ــ فديتك يا عزيزتي من ملاك فمنك استفدت العلم بان اللطف والكمال والنباهة والجمال محاسن صفات تغني عن الاصل النبيل والغنى الجزيل

تمت